

أرملة عاشقة

أرملة عاشقة (رواية)

ستيفان زفايج

تقديم ومراجعة: خالد عوض

الطبعة: ٢٠٢٣



العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

ستيفان زفايج. – تقديم ومراجعة: خالد عوض – أرملة عاشقة

– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢

١٣١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٤ – ٧ – ٨٦٤٦٤ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٠٩٦ / ٢٠٢٣

ستيفان زفايج

أرملة عاشقة

رواية

تقديم ومراجعة

خالد عوض

تقديم

الحب موضوع دائم وأبدي في كل الآداب، شعرًا ونثرًا، قديمًا وحديثًا، وبكل اللغات. فأي أدب مهما كان تاريخه وثقافته لا يخلو من الكتابة عن الحب، ذلك أمر فطري تشترك فيه كل الآداب. لكن ما يميز أدب عن آخر هو مدى انفتاح المجتمع ومدى حرية التعبير فيه، وما يميز كاتب عن آخر يتمثل في طريقة كتابته.

ومنذ انتشر فن الرواية وأقبل عليه القراء وهو يكاد أن يستحوذ على الكتابة عن الحب، فالشعر يكاد يقتصر على التعبير عن المشاعر، بينما الرواية تصور حالات الحب ونفسيات المحبين، عبر وقائع وأحداث تضع القارىء مقام المحبين، فيكاد يستشعر لواعج الحب ويعاني أسى الفقد، ذلك بالطبع بحسب مقدرة الكاتب وبراعته. والرواية عمومًا لا تفسر الحب، بل تقدمه كما هو، وحين الحديث عنه يتركز هدف الروائي على درجة العمق والاتساع والتأثير والسبب والنتيجة وإلى أين سيؤدي. وإظهار التأثير الذي تحدثه علاقة الحب التي جمعت بين أبطال الرواية وكيف انتهت كل علاقة أو بمعنى أصح إلى أين اتجهت هذه العلاقة، ومن أبرع الكتاب في هذا الشأن الكاتب النمساوي الشهير ستيفان زفايج.

لا أزعم أنه أفضل من كتب عن الحب، فهناك مؤلفين وفلاسفة أبدعوا وأجادوا في الكتابة عنه، ومن بينهم زفايج كذلك، لكنه يتميز برؤيته الخاصة التي نادرًا ما نجدها عند أي روائي آخر، فزفايج لديه مسار خاص به، ولنضرب مثلًا بواحدة من أشهر رواياته وهي «أربع وعشرون ساعة في حياة امرأة»، وهي من أهم أعمال ستيفان زفايج التي تكشف عن موهبته الكبيرة في التعبير عن النفس البشرية بكل تعقيد تركيبتها وتناقضاتها. لذلك اعتبرها فرويد تحفة فنية، بينما قال عنها الأديب الروسي ماكسيم جوركي، إنه لم يقرأ في حياته رواية بمثل قوتها، ومديحه لها أسهم كثيرًا في انتشارها عالميًّا، وفي انتشار اسم كاتبها.

وقد تربع زفايج على عرش الرواية العالمية لمدة تزيد على العشرين عامًا، تحديدًا الفترة ما بين عامي ١٩١١ و١٩٣٣ م، وهي الفترة التي بدأت بصدور واحدة من أهم روايات زفايج وأكثرها تأثيرًا، وأعني بها روايته "قلوب تحترق"، التي وزعت في حينها قرابة المائة وخمسين ألف نسخة، وهو رقم كان يعد في ذلك الحين شديد الضخامة، خاصة إذا علمنا أن تلك الآلاف من النسخ تخص الطبعة الألمانية فقط، وقد ترجمت وطبعت بعد ذلك بأكثر من لغة. ويرجع ذلك إلى أن ستيفان زفايج يصور في رواياته أدق تفاصيل النزاعات

الإنسانية في مُجمل نتاجه الأدبي، الذي تنوع بين القصة القصيرة والرواية وكتابة سير الشخصيات الشهيرة في الحياة الاجتماعية، وكذلك تقديم قراءات لروائع الروايات العالمية بالتحليل، وتناول أهم الأسماء الأدبية والفكرية.

وكان زفايج يرسم ملامح أعماق النفس البشرية، ويكشف عن أدق خفاياها وأعنف انفعالاتها، كالحب والكراهية والخوف والشغف، مما دفع البعض لمقارنة رواياته بدراسات فرويد في علم النفس. وقد ترجمت أعماله إلى أكثر مـــن خمسين لغة، وقد أطلق عليه اسم دوستويفسكي النمساوي.

وقبل أن نعرض لروايته "الأرملة العاشقة" ونضعها بين أيدي أولئك الذين يميلون لقراءة الأدب الإنساني الرفيع، خاصة في نماذجه الكلاسيكية الراسخة، وجب علينا أن نعرّف بكاتب هذه الرواية.

فمن هو ستيفان زفايج؟

ولد ستيفان زفايج في مدينة "فيينا" في ٢٨ نوفمبر ١٨٨١، وفيها أكمل تعليمه الجامعي، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة برسالة تناولت الناقد الفرنسي الشهير تين، كما كتب الشعر وفازت قصائده بجائزة "بوير نفليد" للشعر، واشتهر بترجماته لبعض الأعمال الأدبية الرائدة، خصوصًا من الأدبين الفرنسي والروسي، كما أصدر

كتبًا عن كبار الأدباء في العالم، وفي ذات الوقت كتب العشرات من القصص والروايات والمسرحيات.

وكان زفايج قد سافر إلى باريس في عام ١٩٠٤، وعاش فيها لفترة دفعته لأن يترجم أعمال بودلير ورامبو ورومان رولان، وغيرهم من كبار الكتاب الفرنسيين، وقد قال عنه الروائي الفرنسي جول رومانس: "زفايج هو أحد المفكرين السبعة الأكثر عمقًا في أوروبا بأسرها". وكان من دعاة السلام، ونموذجًا للأوروبي المسالم، ولذلك كان جرحه عميقًا حينما نشبت الحرب العالمية الأولى، وهو أكثر كتاب جيله شهرة، ليس فقط في النمسا، بل بين كل كتاب أوروبا في ذلك الوقت.

وقد اضطر ستيفان زفايج للهجرة في عام ١٩٣٨، فعانى الشتات لأربعة أعوام، فقد سافر أولًا إلى بريطانيا بصحبة زوجته الأولى فردريكه، وفي عام ١٩٣٩ تزوج من سكرتيرته "لوتاه"، وسافر معها إلى الولايات المتحدة التي لم يحتمل الحياة فيها لأكثر من عام، ثم سافر إلى البرازيل في ١٩٤٠، لتكون مستقره الأخير. وهناك كتب عددًا من أعماله المهمة ومنها "لاعب الشطرنج" (١٩٤٢)، كما قدم كتابًا عن البرازيل نفسها بعنوان "البرازيل أرض المستقبل" وهو آخر كتاب نشره زفايج في حياته، وقد صدرت بعد رحيله عدة

كتب، كان قد انت هي من تأليفها قبل انتحاره منها كتابه الشهير عن الروائي الفرنسي "بلزاك".

وكان زفايج قد كتب مذكراته بعنوان "مذكرات أوروبي" كما قدم سيرته الذاتية في عمل أدبي فذ منحه اسم "عالم الأمس"، وذلك في مطلع أربعينيات القرن العشرين، حين كانت الحرب العالمية الثانية في أوجها.

أرملة عاشقة:

لقي أدب ستيفان زفايج تقديرًا كبيرًا، سواء في بلده أم خارجها، وسواء قبل وفاته أم بعد رحيله، وسواء بلغته الأصلية أم باللغات التي ترجم إليها، فقد كتب الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر في إحدى رسائله لحنة أرنت أن الرواية اكتشفت بمنطقها الخاص مختلف جوانب الوجود، تساءلت مع سرفانستس عن معنى المغامرة، وعند بلزاك أبانت عن تجذر الإنسان في التاريخ، كما امتدت مع فلوبير إلى أصقاع مجهولة، وأضاءت الرواية لدى دوستويفسكي التدخل اللاعقلاني في السلوك البشري، وهذا ما يعني أن الرواية تتمحور حول الإنسان، إذ سبق الفن الروائي علم النفس، في تناول ما يعتملُ في أعماق الإنسان من المشاعر والنوازع المعقدة، وتصوير اللحظات التي يكونُ الكائنُ البشري

واقعًا في أسر حالات غير مفهومة. ورأي أن روايات ستيفان زفايج من هذا الإطار.

وعربيًّا كتب يحيى حقي ـ وهو أول من ترجم رواية "لاعب الشطرنج" إلى اللغة العربية ـ أن ستيفان زفايج في رواياته لا ينتقص من قدر الإنسان كونه كائنًا ضعيفًا، ويعريه دون أن يسخر منهُ، ولكنه يضعنا أمام هشاشة الإنسان وخطأ إطلاق التوصيفات المُتَسَرِعة على تصرفاته، وفقًا لما سنه المجتمع من التقاليد والأعراف، فمثلًا دائمًا ما تقع المرأة في رواياته في الخطيئة، فهل يعني ذلك إدانة ما لها؟

بالطبع لا، وعن ذلك يقول زفايج: "كثيرًا ما تقع المرأة في حياتها ضحية لعوامل مبهمة، أقوى من إرادتها وخصالها، فلا يمكن الحكم على هذه المرأة بالفجور.. ثم أوضحتُ أن اللجوء إلى الأساليب الملتوية، وطمس الحقائق، إنما نغرر به أنفسنا، حتى لا نستشعر بشاعة غرائزنا ".

وفي إحدى رواياته قال عن واحدة من أولئك النسوة: "ماذا في أن تمرّ بالمرء لحظة من لحظات الطيش.. مرةً واحدة في هذا العمر المديد؟! ولكن أين المفر من ذلك الرقيب الغامض.. الضمير؟".

وفي روايته "أرملة عاشقة "وهي واحدة من أشهر أعماله، التي

تمزج في أسلوبها بين الرومانسية والانطباعية، ففيها جمل تصف الطبيعة وقراءة حركة الأيدي وشكلها وارتباطها بالنَّفس البشرية، والمشاعر المرتبطة بالانفعالات الكثيرة والمتحولة، كالخوف والحب والخشوع والتمرد والتنمر وغيرها، واختصار الحياة في وجه الحبيب، وما عداه جماد ميتٌ وبارد.

هذه التفاصيل التي لم تغب عن روايات زفايج عمومًا، حيث يتقن صنعتها، ويجعل منها لعبته التي ينقلنا بها إلى مسرح الحدث الحكائي، ليصبح ناطقًا ومسموعًا، ونصبح بفعله أكثر تعاطفًا مع الشخصيات والأمكنة أولًا، ومع إنسانيتنا ثانيًا وأخيرًا، ويسرِّب الماضي إلى الحاضر بحضورٍ كامل، بقدر ما يجعل مما هو شخصي أكثر الأشياء تعميمًا.

هكذا تنكسر الرتابة التي نشيخ على يديها بنفحةِ حبٍّ واحدة، تحمل من الطاقة العاطفية، ما يكفي لمخزون عمرٍ بأكمله، وينهزم الألم على ساعد حب الحياة، ويصبح التعريف الوحيد للشيخوخة هو الخوف والعيش في الماضي.

وفيها يسعى زفايج إلى بيان أن الإنسان السوي يبقى مُتمسكًا بالنزاهة، ويقبض على الأخلاق والقيم في كل الأوقات، وحتى لو تعرض للظلم وتم حرمانه من حقوقه، فإنه في آخر خطوات الألم والفاقة يُحاول أن يُبدع ويهب الآخرين شيئًا ذا قيمة في الحياة سواء كان كاتبًا أو شخصًا عامًا يتمتع بخصوصية في شخصيته. يروق لزفايج أن يُسمي هؤلاء بمختلف شرائحهم ببناة العالم، وهو يعني عالم الإنسان الداخلي الذي يبنيه هؤلاء في نفوس أبناء الحقب التاريخية، كما يمكن لهؤلاء أن يشوهوا أبناء هذه الحقب فيجعلونهم

انهزاميين، استسلاميين، جبناء. فيزرعون في نفوسهم ثقافة الجبن والتسليم بالأمر الواقع تحت سياط التهديد والرعب. من هنا ينادي زفايج بثقافة اجتماعية عامة لمواجهة مثل هذه النماذج، وهو ذاته عانى بقوة من رعونة الحقبة النازية ودكتاتوريتها.

خالد عوض

الفصل الأول

كان ذلك قبل الحرب بعشر سنوات، وقت تناولنا الطعام في البنسيون الذي اعتدت أن أقضي فيه فصل الشتاء، حين احتدم النقاش بيننا ودون أن نفطن تطور النقاش، فكاد أن يتحول إلى شجار مصحوب بالسباب، وذلك من أجل حادث تافه لا يستحق ما أثاره من خلاف.

وكان هذا شأن أفراد الجماعة فياعتادت الجلوس إلى مائدتنا، وكلهم من أبناء الطبقة الوسطى، فقد اعتادوا أن يقنعوا بالأحاديث القصيرة الهادئة، تتخللها بعض الدعابات الخفيفة، ثم يتفرقون بمجرد الانتهاء من تناول الطعام، وكان الزوجان الألمانيان ينصرفان لممارسة هوايتهما في التصوير الفوتوغرافي. ويفرغ الدانمركي الممتلئ الجسم إلى صيد السمك، وكانت الإنجليزية العجوز تخلو إلى كتبها. بينما يتردد العروسان الإيطاليان مونت كارلو، أما أنا فكنت أستلقي فوق مقعد من القماش، أو أعكف على التأليف.

لكننا في هذه المرة لزمنا أماكننا، وقد اشتبكنا في الجدال العنيف.. وكان يحدث أن يقفز أحدنا عن مجلسه لحظة، ولكن لم يكن قفزه هذا كما استئذانا بمفارقة الجماعة، وإنما لمجرد إظهارًا لانفعال اشتد حتى انقلب غضبًا.

والواقع أن المسألة التي أثارت جماعتنا الصغيرة إلى هذا الحد كانت غريبة حقًّا.. كان النزل الذي أقمنا فيه نحن السبعة يبدو في ظاهرة دارًا "فيلا" قائمة بذاتها، تشرف نوافذها على منظر رائع على الساحل.. أما في حقيقته، فكان البنسيون قسمًا خاصًّا رخيص الأجر، ملحقًا بفندق بالاس، وكانت تصله بهذا الفندق حديقة تمكننا من أن نختلط بنزلاء المبنى الرئيسى اختلاطًا تامًّا..

وكانت ثمة ضجة كبرى قد حدثت في الفندق في اليوم السابق.. ففي قطار الساعة عشرة والدقيقة العشرين – ولابد من تحديد الموعد بالدقة، لما له من أهمية فيما حدث، وفي نقاشنا المحتدم – وصل شاب فرنسي، واستأجر إحدى الحجرات الأمامية المطلة على البحر.. وكان حرصه على اختيار موقع حجرته دليلًا كافيًا على أنه من ذوي الثراء.. كما أنه كان يسترعي الأنظار، لا لأناقة ملبسه – في غير بهرجة – فحسب، بل لأنه كان على درجة غير عادية من الوسامة واللطف، كان وجهه ناحلًا، أشبه بوجه أنثى.. وكان فمه يوحى بالدفء والعواطف المرهفة، يعلوه شارب أصفر ناعم.. أما شعره فكان كستنائيًّا، ناعمًا، يشوبه تموج يروق للعين.. وكانت عيناه تنمان عن لطف وحنان، وبالإختصار، كان في مجموعه فاتنًا رقيقًا حقًّا، ومع ذلك كان غاية في البساطة، خلوا من كل تكلف، والواقع

أن شكله كان يذكر الناظر لأول وهلة بتلك الوجوه الوردية المصنوعة من الشمع، التي ترى في نوافذ متاجر الأزياء أو بتلك التماثيل التي تصور أجمل الشبان في أوضاع رشيقة، متكئين على أريكة، كنماذج لأعلى مثل الجمال بين الرجال، ولكن تأمل النزيل الجديد عن قرب كان ينقض هذه الفكرة غير المستملحة عنه، فلا يلبث الناظر إليه أن يتبين أنه إزاء مثل من الأمثلة النادرة للطف الطبيعي الكامن في نفس صاحبه .

وأخذ النزيل الجديد يحي كل شخص بطريقة تجمع بين التواضع والحفاوة.. وكان من بواعث السرور حقًّا أن تشهد حرصه على إضفاء حسن طباعة، وعلى أن ينتهز كل فرصة ليؤدي بعض المجاملات الرقيقة.. فكان يسرع إلى مساعدة أية سيدة تخرج إلى البهو بحثًا عن معطفها، ويقابل كل طفل بنظرة ودود، أو كلمة لطيفة، كان ظريفًا في غير إزعاج.. وباختصار، كان من أولئك المحظوظين، الذين يدرك الواحد منهم – بالتجربة – أن الآخرين يبتهجون بشبابه وحسن مظهره، فيزيده هذا الإدراك سحرًا وفتنة.. وكان لوجوده مفعول الدواء المقوي في نفوس النزلاء الآخرين، الذين كان أغلبهم من المسنين.. وقد استطاع أن يستولي دون عناء على مشاعرهم جميعًا، بفضل شبابه الذي كان يغزو القلوب، وبما أوتي

من المرح الفياض والنشاط الدافق، فلم تنقض ساعتان على وصوله، حتى كان يلعب "التنس" مع ابنتي الرجل البدين، المبادئ الميسرة، والذي يمتلك مصنعًا في (ليون)، وكانتا فتاتين في الثانية عشرة والثالثة عشرة من العمر، تدعى أولهما "آنيت" والأخرى "بلانش".. وكانت أمهما – "مدام هنرييت" – سيدة محتشمة، رقيقة، مهذبة، وقد راحت ترقب في ابتسام كيف كانت الصبيتان تداعبان الشاب الغريب في دلال بريء.. حتى إذا كان المساء، انضم هو إلينا ساعة حول رقعة الشطرنج، وروى لنا – في أدب – قصتين أو ثلاثًا من القصص الشائقة، ثم أخذ يتمشى في الشرفة، مندمجًا في حديث مع مدام "هنريت"، التي كان زوجها مستغرقًا في لعب "الدومينو" مع صديق له من رجال الأعمال.. فلما تقدم الليل، رأيته في مكتب سكرتيرة الفندق، وقد انهمك الاثنان في حديث خاص، كاد يبدو سرًّا خاصًا بينهما!.

وفي الصباح التالي، انطلق الفتى لصيد السمك مع النزيل الدانمركي، مبديًا إلمامًا واسعًا بهذه الرياضة.. ثم انصرف إلى الحديث مع صاحب مصنع (ليون)، فتناولا المسائل السياسية.. وبدا أن الشاب الفرنسي كان محدثًا ظريفًا، إذ إن قهقهة الرجل المسن كانت تنبعث – من وقت لآخر – عالية، حتى لقد كانت تطغى على هدير البحر!.

وبعد تناول الغداء – وليس بوسعي إيضاح الموقف دون إيراد هذه التفصيلات جميعًا – جلس ساعة مع هدام "هنرييت" في الحديقة يحتسيان القهوة، ثم لعب "التنس" مرة أخرى مع ابنتيهما، وانصرف بعد ذلك إلى الحديث مع الزوجين الألمانيين في بهو الفندق.. حتى إذا كانت الساعة السادسة، التقيت به في محطة سكة الحديد، حيث ذهبت لإلقاء خطاب في صندوق البريد، فأقبل عليّ في خطوات متعجلة، وقال إنه مضطر إلى أن يودعنى، إذا استدعي للسفر فجأة، ولكنه لن يلبث أن يعود بعد يومين.. وبالفعل، لم يكن بيننا على العشاء.. على أنه وإن غاب بجسمه، فقد كان حاضرًا بروحه، إذ كان المحور الرئيسي للحديث، فقد أخذ القوم – على كل مائدة – يطرون طباعه العذبة، المرحة !

وخلوت في غرفتي – في تلك الليلة إلى كتاب أردت أن أفرغ منه.. ولعلها كانت الساعة الحادية عشرة، حين سمعت فجأة خلال النافذة المفتوحة – جلبة في الحديقة، وأشخاصًا يتنادون، بينما بدا أن أمرًا غير معتاد يجري في الفندق.. وأسرعت – يدفعني القلق أكثر مما يحدوني الفضول – فاجتزت الياردات الخمسين التي تفصل بين الملحق والفندق، وإذا بأحد النزلاء ومستخدمي الفندق في قلق صاخب..

كان زوج مداد "هنريت"، قد انصرف إلى لعب "الدزمين" مع صديقه القادم من "نامور"، كعادته في مثل تلك الساعة من كل ليلة، ولكن الزوجة لم تكن قد عادت من نزهتها المسائية على شاطئ البحر، فإذا كل امرئ يوجس خيفة من أن يكون قد أصابها مكروه.. واندفع الزوج – الذي كان بدينًا، ولكنه بطبعه رزين، خفيف الحركة – وراح يجري على الشاطئ كحيوان مذعور.. وعندما أخذ يناديها بصوت يخنقه الانفعال "هنريت.. هنريت" بدا صياحه وحشيًّا، رهيبًا، كصراخ حيوان ضخم دهمه الموت بغتة.. وراح السقاة والسعاة ينهبون السلالم – صعودًا وهبوطًا – موقظين النزلاء.. واتصل مدير الفندق تليفونيًّا بالبوليس.. والزوج البدين يهيم – طيلة هذه الأثناء – متخبطًا كالمعتوه، وقد فك أزرار صديريه، وراح يصيح دون انقطاع: "هنريت! هنريت"، بصوت جمع بين العويل والصراخ..

وما لبثت ابنتاه أن استيقظتا، فوقفتا بقميصي النوم في النافذة تناديان أمهما، وإذ ذاك هرع الأب صاعدًا إليهما أملًا منه في أن يهدئ روعهما..

ثم حدث أمر من البشاعة بدرجة لا أكاد أجد عبارات أصفه بها، إذ إن الطبيعة – في أوقات الأزمات العصيبة – كثيرًا ما تخلع على تصرفات الناس طابعًا أليمًا، لا سبيل للرسم ولا للكلام إلى

وصف قوته الهائلة! إذ ما لبث الرجل البدين، الجزع، أن هبط السلم وقد تبدلت أساريره، وبدا عليه الإعياء والوحشية في آن واحد، وهو يمسك بيده رسالة مفتوحة وصاح في رئيس الخدم، وقد استرد صوته رزانته: "ادع رجالك للعودة.. لم يعد في وسعهم أن يفعلوا شيئًا.. لقد هربت زوجتى!".

كان في مسلك الرجل شيء من ضبط النفس، رغم أنه أصيب لتوه بطعنة نجلاء.. بل لقد أبدى جلدًا يفوق طاقة البشر، أمام كل الناس الذين أحاطوا به متسائلين، وأخذوا يرمقونه بأنظارهم.. ثم لم يلبثوا أن انفضوا من حوله، وقد غشيهم الفزع والخجل فجأة! وكانت لا تزال به بقية من قوة مكنته من أن يمر بنا مترنحًا – دون أن ينظر إلى أحد منا – متجهًا إلى قاعة المطالعة، حيث أطفأ الأنوار.. وسمعنا صوت ارتطام جسمه الضخم وهو يتهالك على أحد المقاعد، ثم انبعث نحيب حيواني وحشي.. بكاء رجل لم يعرف البكاء منذ طفولته..

هذا المظهر البدائي للألم المبرح، كان له في نفوسنا جميعًا – حتى أضعفنا إحساسًا – تأثير أذهلنا، فلم يجرؤ أحد من خدم الفندق، ولا من الفضوليين من النزلاء، على أن يبتسم أو ينبس بكلمة تتصل بالموضوع.. وإنما انسحبنا في صمت.. وكأنما أخجلنا هذا الانفجار

العاطفي المدوي، فتسللنا إلى حجراتنا، واحدًا إثر واحد.. بينما ظل هذا الحطام البشري المنهار يبكي ويشهق في عزلة وظلام الحجرة التي لاذ بها، وقد شملته وحدة مطلقة في هذا الفندق الكبير، الذي ملأته همسات لم تلبث أن أخذت تخفت رويدًا، متلاشية في الظلام، ليسود صمت لم يكن يعكره سوى نحيب الرجل..

وقد يتبادر إلى الذهن أن حادثًا كهذا – يقع فجأة، وتحت أبصارنا – كفيل بأن يترك أثرًا قويًّا في نفوس قوم كانوا – بوجه عام – يعيشون بمنأي عن الهموم والشواغل، ولا يجدون لهم من عمل عادة سوى البحث عن ملهاة تجنبهم الضجر، بيد أن النقاش الذي احتدم حول مائدتنا، والذي أوشك المشتركون فيه أن يتبادلوا خلاله الكلمات.. هذا النقاش كان في صميمه – رغم انبعاثه عن الحادث الذي رويته لتوي – مظهرًا لخلاف حول مبدأ معين.. كان صراعًا عنيفًا بين وجهتي نظر متعارضتين في الحياة !. فقد كان الزوج المهجور – في غضبه الأهوج – قد فرك الخطاب، وألقاه على أرض قاعة المطالعة، فإذا بخادمة تلتقطه وتقرأه.. وعن طريق لسانها المفلوت، عرف الجميع أن مدام "هنريت" لم ترحل بمفردها، ولكنها سافرت بصحبة الشاب الفرنسي!، وإزاء هذا النبأ، بدأت نظرة العطف التي كان معظم النزلاء يبدونها للشاب الغريب في الانحسار... وإن كان

من الطبيعي – في الواقع – أن تهجر "مدام بوفاري" الصغيرة هذه الرجل الريفي الكئيب، البدين، – وزوجهًا – لتلقي بمصيرها إلى شاب وسيم لطيف!

على أن الذي أثار سخط الجميع، هو أنه لا صاحب المصنع، ولا ابنتيه، ولا مدام "هنريت"، كانوا قد رأوا الشاب الفرنسي لوفلاس من قبل.. وأن حوارًا لمدة ساعتين في الشرفة مساءً، وحديثًا لمدة ساعة في أثناء تناول القهوة في الحديقة، كانا كافيين لإغراء امرأة في نحو الثلاثين من عمرها على أن تهجر زوجهًا وابنتيها، وتسلم مصيرها إلى أهواء شاب غريب عنها تمامًا.

واتفقت كلمة الجماعة التي ضمتها مائدتنا على أن هذا العمل – بظروفه التي لا لبس فيها ولا غموض – كان خيانة منكرة من العاشقين.. وأن مدام "هنريت" كانت ولابد على علافة خفية بذلك الشاب قبل اليوم بأمد طويل، وأن هذا الساحر ما جاء إلا ليرسم معها آخر دقائق خطة هربهما.. فمن المؤكد أن أية سيدة محترمة يستحيل عليها أن تهجر زوجهًا لأول إشارة من رجل لم تنقض على تعارفها به أكثر من سويعات قلائل! هكذا رأي الجميع.. أما أنا، فقد راق لي أن أنحو نحوًا مخالفًا، وأعلن في تحمس أن من المعقول، إن لم يكن من المحتمل، أن يصدر عمل كهذا عن امرأة لم تصادف

في حياتها الزوجية – على مر السنين – سوى خيبة الأمل.. أو منيت من الزواج بضجر لم تجد مفرًا منه إلا باللاستسلام عند أول هجوم قوي لغزو قلبها! وسرعان ما أثار هذا الرأي غير المرتقب نقاشًا عامًّا، لم يلبث أن اشتد واحتدم، إذ رفض الزوجان الألمانيان، والزوجان الإيطاليان أن يعترفوا بما يسمى بالحب الداهم.. الحب الذي يستولي على القلب من النظرة الأولى.. وقالوا في عبارات تجاوزت حدود المجاملة: إن القول بوجود شيء كهذا حماقة، لأنه من وحي خيال الروائيين!

ولا مجال هنا لإعادة سرد النقاش العاصف – الذي دار في أثناء تناول الطعام – بحذافيره، على أن أحدًا لم يؤت من حضور البديهة في مثل هذه المحاورات، قدر أولئك الذين ألفوا تناول الوجبات في المحال العامة، ذلك لأن الحجج التي تعن في غمرة جدال طارئ حول مائدة، تكون تافهة في العادة، لأنها مرتجلة، تقفز إلى الخاطر في عجلة، كذلك من العسير أن نبين سبب احتدام مناقشتنا بمثل هذه السرعة، وأعتقد أن التوتر الذي سرى في الجو، نشأ في أول الأمر عن حرص الزوجين – الألماني والإيطالي – على أن يبينا بجلاء أن زوجتيهما بمنجاة تمامًا من الإقدام على مثل هذا التصرف الطائش، الذي أقدمت عليه مداد هنريت.. وشاء الحظ أن لا يجدا، لإيضاح

رأيهما، أفضل من أن يقولا إن آرائى لا يمكن أن يعتنقها سوى رجل يحكم على نفسية المرأة في ضوء خبرته مع من عرف من النساء في مغامراته العابرة، النساء اللاتي يسهل وقوعهمن فرائس لكل رجل أعزب.. وأزكى هذا الرأي غضبي بعض الشيء، فلما قالت السيدة الألمانية، بنفس اللهجة القاسية، إن النساء نوعان: "نساء فاضلات"، و"نساء فطرن على الفجور"، وإن مدام "هنريت" في رأيها لابد أن تحسب من النوع الثاني، نفذ صبري تمامًا، وعمدت إلى الهجوم، قائلًا إن المرأة تصادف في حياتها ساعات كثيرة تتعرض فيها لدوافع غامضة أشد قوة من إرادتها، ومن عملها.. وإن هذا التهرب من الحقيقة الواضحة، وذلك الكبت للواقع، لا يهدفان إلا إلى إخفاء استبشاعنا لغرائزنا، وخوفنا من القوى الأولية الكامنة في طبيعتنا، وجاهرت بأن كثيرًا من الناس يستطيبون أن يتصوروا أنفسهم أصلب عودًا، وأقوى خلقًا، وأطهر نفسًا من "أولئك اللاتي انزلقن بسهولة إلى الزلل .. أما أنا، فأرى من الأشرف للمرأة أن تسلم قيادها – في حرية وانطلاق – لغريزتها، بدلًا من أن تغمض عينيها وتخون زوجها وهي بين ذراعيه، كما جرت عادة النساء عامة!

كان هذا خلاصة ما قلت على وجه التقريب.. وكانت المناقشة – في هذه الأثناء – قد اشتدت قسوة، بطبيعة الحال.. وكلما عنف

الآخرون في مهاجمة مدام "هنريت" المسكينة، ازددت تحمسًا في الدفاع عنها.. وإن كنت في الواقع قد شعرت بأنني قد جاوزت حدي، شأن المرء إذا ما استثير.. ولاح للزوجين الألمانيين وزميليها الإيطاليين أن تهوري أشبه بالإهانة التي يعمد إليها الصبية للاستفزاز، ومع أنهم كانوا يؤلفون رباعيًّا" غير متناسق ولا منسجم، إلا أنهم استطاعوا أن يحشدوا قواهم في مهاجمتي بشدة، ومن ثم زاد هياجنا إلى درجة حدت بالسيد الدانيمركي المسن إلى أن يتطلع نحونا ببشاشة – ذكرتني بالحكم حين يقف في مباريات كرة القدم ممسكًا بساعة التوقيت (الستوب – ووتش) في يده – وأن يطرق المائدة بأصابعه عدة مرات، منبهًا إيانا، وهو يقول: "أرجوكم، أيها السادة!".. وكان هذا التدخل يحملنا على الهدوء إلى حد ما، ولكن.. للحظة واحدة.. ولقد قفز أحد الزوجين ثلاث مرات مستويًا على قدميه، وقد احتقن وجهه غضبًا، فكانت زوجته تجد عناء في تهدئته، وكنا مسوقين – بلا مراء – إلى أن نشتبك بالأيدي بعد دقائق قليلة، لو لم تتدخل مسز "س" فتلطف من حدة هياجنا.

كانت مسز "س" سيدة إنجليزية متقدمة في السن، بيضاء الشعر، بادية الوقار، استطاعت أن تكون "زعيمة" لمائدتنا دون ما انتخاب رسمي! فهي تتصدر المائدة، في جلسة معتدلة، وتوزع على

كل منا قسطًا من الرعاية، في عدل ومساواة.. وكانت قليلة الكلام بعض الشيء، ولكنها تحسن الإصغاء.. وكان مظهرها في حد ذاته يشرح الصدر، إذ كان يبدو أن رزانة رائعة تشع من شخصيتها الوقور، المترفعة!، وكانت لا تختلط بنا إلا بقدر، وإن كانت كانت تعرف دائمًا – في لباقة بديعة – متى تبدي الود، ومتى تقبل الزمالة.. على أنها كانت عادة تجلس في الحديقة منصرفة إلى القراءة أو تعزف على "البيانو" في بعض الأحيان، وكان من النادر جدًّا أن ترى منهكمة في حديث خال من الكلفة مع أي إنسان.. كانت ميالة للعزلة، ومع ذلك فقد كان لها على زملائها من النزلاء تأثير غريب.. فما إن تكلمت حتى شعرنا جميعًا باستحياء من أنفسنا، إذ فطنا إلى أننا سلكنا مسلكًا غير لائق...

واستغلت مسز "س" الوجوم الذي ساد حين قفز الألماني على قدميه، ثم أغري على الجلوس ثانية، فرفعت عينيها الماديتين الصافيتين، على غير توقع، ورمقتني لحظة والتردد يبدو عليها، ثم تناولت الموضوع، من وجهة نظرها، في حنكة وبراعة، فقالت: "إذن فأنت ترى – إن كنت قد أصبت في فهم حديثك – أن من المحتمل أن تكون مداد "هنريت" قد وجدت نفسها مسوقة إلى هذه المغامرة في سذاجة، ودون تدبير سابق.. وأن مثل هذا قد يحدث لأية امرأة،

فتجد نفسها متورطة في تصرفات كانت تبدو لها – قبل ذلك بساعة واحدة – مستحيلة، ومن ثم فهي لا تكاد تكون مسئولة عنها!".

– هذا ما أراه بالتأكيد!

– ولكن هذا يجعل معاييرنا الخلقية غير ذات قيمة، ويبرر أي انتهاك للقوانين.. وإذا كنت تعتقد حقًّا أن "الجريمة العاطفية" ليست جريمة على الإطلاق، فما حاجتنا إلى نظام قضائي؟ إنك إذا شيءت – (وهنا ابتسمت) – وأخال أن اتجاهك يميل فعلًا إلى هذا، ففي وسعك أن تجد وراء كل جريمة دافعًا عاطفيًّا يبررها، بناء على رأيك!.

وأطربتني نبرات صوتها.. كانت واضحة، بل إنني أكاد أقول إنها كانت مرحة.. فقلت بين الجد والفكاهة محاولا بدوري أن أقلدها: "لا مراء في أن العدالة العامة ترى في هذه الأمور رأيًا أقسى من رأيي.. فإن المجتمع المنظم مسوق إلى حماية الأخلاق العامة والتقاليد، ومن ثم فهو مضطر إلى أن يدين بدلًا من أن يعذر. أما أنا، فلست أرى ما يضطرني – كفرد عادي – إلى أن أقوم بدور المدعي العام، وإنما أفضل أن أؤدي دور الدفاع.. إنني أؤثر أن أفهم الناس بدلًا من أن أحكم عليهم!".

وحدجتني مسز "س" بنظرة ثابتة، ثم ترددت قبل أن تجيب.. وكنت قد بدأت أخشى أن لا تكون قد فهمت تمامًا ما رميت إليه،

فهممت بأن أكرر بالإنجليزية ما سبق أن قلته بالألمانية.. بيد أنني لم أجد ما يدعو إلى ذلك، إذ لم تلبث أن عاودت تساؤلها في لهجة صارمة، وكأنها أستاذ ممتحن: "ألا تراه عملًا شائنًا.. ألا تراه عملاً معيبًا أن تترك امرأة زوجهًا وابنتيها لكي تربط مصيرها بمخلوق ألقته المصادفات في طريقها، وهي لا يمكن أن تكون قد أدركت بعد ما إذا كان أهلًا لحبها؟ أترى حقًا أن من الممكن التماس عذر لهذا العمل النابي.. لهذا المسلك الطائش، من امرأة لم تعد في باكورة الشباب.. امرأة كان يخلق بها ان تحترم نفسها، ولو من أجل ابنتيها؟".

ولكنني تشبثت بوجهة نظري، قائلًا: "لا يسعنى إلا أن أكرر أنني أتردد في أن أتخذ رأيًا، أو أن أدين السيدة، في هذا الحادث.. على أنني مستعد لأن أقر أمامك أني كنت مبالغًا في تصوير الحادث، فليست مداد "هنرييت" المسكينة بطلة بالطبع.. ولست أحسبها كانت مدفوعة بحب المغامرة المنزه عن أية شائبة.. وكذلك أراني أقل ميلًا إلى اعتبارها "عاشقة مدلهة".. لقد لاحت لي – فيما رأيته منها – امرأة لا تزيد عن أية امرأة عادية في شيء، بل إنها امرأة ضعيفة، ومع ذلك فإني أكن لها شيئًا من العطف – كذلك – لأني موقن من أنها ستكون في أقصى حالات التعاسة غدًا، إن لم تكن اليوم.. ولعلها

اندفعت في حماقة.. ومهما يكن الأمر، فإنها كانت متعجلة في اندفاعها أكثر مما ينبغي، ولكن مسلكها – في حد ذاته – لا ينطوي على شيء من الدناءة أو الخسة.. وما زلت – كما كنت من قبل – أنكر على أي إنسان الحق في أن يحتقر هذه المرأة المسكينة، التسعة!".

– إذن فأنت ما زلت – في قرارة نفسك – مقيمًا على احترامك وتقديرك لها؟ ألا تفرق بين المرأة الشريفة التي كنت في صحبتها حتى أول أمس، وهذه المرأة الأخرى التي هربت أمس مع رجل غريب عنها تمامًا؟

– لست أفرق بينهما على الإطلاق...

فهتفت بالإنجليزية – على الرغم منها – إذ استغرقها موضوع النقاش إلى أقصى حد: "أهذا رأيك حقًّا؟".. وأخلدت إلى التفكير فترة وجيزة، ثم تطلعت إليّ ثانية بنظراتها الصافية، وعادت تقول: "وإذا حدث أن التقيت غدًا بمدام "هنرييت"، في (نيس) – مثلًا – وهي بين ذراعي ذلك الشاب، فهل تحييها كالعادة؟".

– بالتأكيد.

– وهل تتحدث إليها؟

– بالتأكيد.

– فإذا كنت.. أو لو كنت متزوجًا، أفكنت تعرف زوجتك بامرأة كهذه، وكأن شيئًا ما لم يحدث على الإطلاق؟!

وعندما أجبت: "بالتأكيد"، هتفت بالإنجليزية – مرة أخرى – وقد استبدت بها الدهشة، فأنكرت ما سمعت: "أحقًّا كنت تفعل هذا؟".. فأجبت بالإنجليزية مثلها، دون ما تعمد: "كنت أفعله حقًّا!".

ولاذت مسز "س" بالصمت، وبدا عليها الاستغراق في تفكير عميق، وما لبثت أن قالت بالإنجليزية – فجأة – وهي تحملق في وجهي، وكأنها في دهشة من جرأتها: "ما الذي يدريني بما كنت أفعله أنا؟ ربما كنت قد حذوت حذوها".

ونهضت فمدت لي يدها مصافحة، بذلك الاطمئنان الذي لا سبيل إلى وصفه، وعاد الهدوء يسودنا بفضل تدخلها. وشعرنا بأننا مدينون لها، إذ استطعنا نحن الذين كنا على وشك الخصام، أن نفترق على شيء من الوئام.

الفصل الثاني

بالرغم من النهاية الهادئة لنقاشنا، إلا أن العلاقات بيننا ظلت تعاني الفتور، فها هما الزوجان الألمانيان يبديان تحفظًا وبرودًا، بينما أخذ الزوجان الإيطاليان يتلطفان إليّ، فكان لا يكفان في الأيام التالية عن سؤالي – في شيء من التهكم – عما إذا كانت لدي أنباء عن "الكاراسنيورا هنريتا".. ومع أننا احتفظنا بما للمعاشرة من إخلاص وصراحة..

وخفف عني الود الخافي الذي اختصتني به مسز "س"، منذ تلك المناقشة، ذلك البرود الساخر الذي بدا من خصومي الألداء.. فقد تحينت عدة فرص لتجاذبني الحديث في الحديقة، وهي التي كانت تلتزم عادة أقصى درجات التحفظ، فلم يحدث قط أن أسرفت في الحديث مع أحد من زملاء المائدة، وأستطيع القول إن ميلها إزئي كان تكريمًا لي، فإن ما امتازت به من تحفظ مترفع، كان يجعل أي حديث تختص به أحدًا، صنيعًا تؤثره به.. أجل، بل إنني لأذهب صادقًا إلى أنها كانت تبحث جادة عني، وتنتهز كل مناسبة للحديث معي.. وكان حرصها على هذا واضحًا لا يمكن إغفاله، مما كان خليقًا بأن يوحي إلى غروري ببعض أفكار معينة، لولا أنها كانت متقدمة في السن، يكلل الشعر الأبيض رأسها!.

على أنه ما من مرة دار فيها الحديث بيننا، إلا واتجه بنا – دون أن ملك له دفعًا – إلى نقطة البداية.. إلى مدام "هنرييت"، ويبدو أن مسز "س" كانت تستشعر لذة خفية في اتهام هذه المرأة – التي نسيت ما عليها من واجبات – بعد الرزانة، وضعف الخلق،.. ولكنها كانت في الوقت ذاته تبدي اغتباطًا بثباتي على ما كنت أظهر نحو تلك المرأة من عطف رقيق مهذب، كما كانت تجهر بسرورها من أن ترى أن شيئًا ما لم يقوَ على أن يزحزحني عن عن ذلك العطف! كانت مسز "س" تذكر لي هذا، وهي توجه أحاديثنا دائمًا نحو هذه الناحية، حتى حرت – في آخر الأمر – من سر هذا الداء العجيب، الذي كاد ينقلب إلحاحًا ممضًا.

وظل الأمر على هذه الحال بضعة أيام – لعلها خمسة أو ستة – دون أن يبدر منها ما يشى بسر اهتمامها بهذا الموضوع، ولكن مدى هذا الاهتمام تجلى واضحًا لي، حين قلت لها عرضًا – في إحدى نزهاتنا – إن إقامتي في الفندق أوشكت على نهايتها، وإنني أفكر في السفر بعد غد.. فقد علا وجهها – الذي كان في العادة هادئًا – اكفهرار غريب، وغامت سحابة معتمة على عينيها اللتين كانتا في لون البحر، ثم قالت: "يا للأسى! لا يزال عندى أمور كثيرة أود ان أتحدث إليك عنها".

وغشيها منذ تلك اللحظة ارتباك وحيرة، كما لو كان فكرها في شغل بموضوع غير الذي كانت تتكلم فيه ولعل شرود ذهنها ضايقها، إذ لم تلبث أن صمتت بغتة، ثم بسطت يدها في عجلة، قائلة: "أرى أني عاجزة عن أن أعبر عما أريد الإفضاء به إليك.. وأفضل أن أكتبه لك".. واتجهت على الفور إلى الفندق بخطى سريعة لم أعهدها منها قبل ذلك الوقت..

وبالفعل، وجدت في حجرتي – قبيل موعد العشاء – خطابًا كتب بخط سريع، واضح.. وكنت – للأسف – مهملًا في الاحتفاظ بالخطابات التي تلقيتها في شبابي، ومن ثم لا يسعني أن أورد نص ذلك الخطاب، وإنما أكتفي بأن أورد مضمونه على وجه التقريب.. فقد سألتني عما إذا كنت أسمح لها بأن تروي لي حادثًا صادفها في حياتها.. وقالت – في رسالتها – إن هذا الحادث من القدم بحيث إنها لم تعد تعتبره جزءًا من حياتها في الواقع.. وبما أنني راحل بعد غد، فإن سفري يسهل عليها الحديث عن أمر ظل يشغل بالها، ويعذبها – في قرارة نفسها – زهاء عشرين عامًا.. فإذا لم أر بأسًا في الإصغاء إلى هذا الحديث، فلأسع إلى لقائها في ساعة حددتها لي..

أسلمني هذا الخطاب – الذي لم أملك هنا سوى الإشارة إلى مضمونه – إلى دهشة تفوق الوصف.. كان أسلوبه الإنجليزى

واضحًا، دقيقًا إلى درجة لا تنسى لغير تلك السيدة، مما جعل الرد أمرًا غير يسير، حتى إنني مزقت ثلاث مسودات، قبل أن أصل إلى صيغة نهائية، قلت فيها: "إنه تشرف أن تؤثريني بمثل هذه الثقة، وأعدك بأن أجيبك مخلصًا إذا ما طلبت رأيي.. ولست – بالطبع – في حاجة إلى أن أرجوك بأن لا تفضي إليّ إلا بما تشاءين أن تبوحي به، على أن تلتزمي الحقيقة الخالصة – نحو نفسك ونحوي – في رواية ما ترين روايته.. وأرجو أن تؤمني بأنني أعتبر ثقتك تقديرًا خاصًّا أعتز به".

ونقلت رسالتي هذه إليها في نفس الليلة، فتلقيت في الصباح التالي هذا الرد: "أنت محق تمامًا فيما قلت، فإن الحقيقة الناقصة لا تساوي شيئًا.. ولابد من أن تكون مكتملة دائمًا.. سأحشد كل قواي لكي لا أخفي شيئًا عن نفسي أو عنك.. فتعال – بعد العشاء – إلى حجرتي (فلست أخشى، وأنا في السابعة والستين، أي تأويل سيئ لزيارتك)، إذ إنني لن أستطيع الكلام في الحديقة، أو على مقربة من الناس.. وصدقني حين أكرر أن اتخاذ هذا القرار لم يكن أمرًا هينًا عليّ!".

والتقينا قبل نهاية ذلك النهار على المائدة، فتبادلنا حديثًا خفيفًا تناول أمورًا غير ذات بال، لكن المرأة تجنبتني في اضطراب جلي حين

التقينا في الحديقة بعد ذلك.. وكم آلمني وأثار إشفاقي أن أرى تلك السيدة العجوز، ذات الشعر الأبيض، تفر مني – في أحد الدروب المحفوفة بأشجار الصنوبر الوراقة – كما لو كانت فتاة في مقتبل الشباب!.

وطرقت بابها في الموعد المناسب من ذلك المساء، ففتحت لي على الفور.. كانت الغرفة مضاءة بنور باهت، كليل.. كان ثمة مصباح صغير واحد، على المنضدة، يرسل ضوءًا مخروطي الشكل، خلال الظلام الداكن الذي يسيطر على الغرفة.. تقدمت مني مسز "س" في غير ما ارتباك، فقدمت لي مقعدًا، واتخذت لنفسها آخر في مواجهتي.. وشعرت بأنها كانت تزن كل حركة من حركاتها! وسادنا صمت واجم فرض نفسه علينا دون إرادة منا.. صمت كذلك الذي يسبق قرارًا يشق اتخاذه.. صمت استمر طويلًا، وطويلًا جدًا، دون أن أجرؤ على خرقه بأن أبدأ الكلام، إذ أحسست بأنني إزاء إرادة قوية، تصطرع في عنف مع مقاومة قوية، وكانت تترامى إلى سمعي في تلك الأثناء أنغام خافتة متقطعة من موسيقى راقصة، كانت تنبعث من قاعة الاستقبال في الطابق السفلي، فأصغيت إليها بكل جوارحي، لكي أتخفف من وطأة الصمت المضني..

وكأنما شعرت المرأة بدورها بوطأة هذا الصمت غير الطبيعي، فما لبثت أن استجمعت قواها، كمن تهاب الهجوم، ثم شرعت تقول:

"ليس أشق عليّ من أن أستهل الحديث.. إنني أتأهب منذ يومين لكي أكون صريحة، صادقة في كل ما أقول، وآمل أن أوفق فيما اعتزمت، ولعلك لم تهتد بعد إلى ما يبرر إقدامي على أن أروي لك كل هذا، وأنت الغريب بالنسبة إليّ.. ولكن ما يكاد يمضي يوم، أو تنقضي ساعة، دون أن أفكر في هذا الحادث.. وبوسعك أن تصدق العجوز التي تجلس أمامك، إذا ما قالت إن من الأمور التي لا تطاق، أن يظل فكر الإنسان مركزًا طيلة حياته على حادث لم يستغرق سوى يوم واحد.. فإن ما أنا مقدمة على روايته لم يستغرق أكثر من أربع وعشرين ساعة من سن عمري السبع والستين! وكم أخذت أردد لنفسي، حتى أوشك قولي أن ينقلب هذيانًا محمومًا: "ما قيمة أن تعترض المرء لحظة حماقة.. لحظة واحدة في كل هذا العمر الطويل؟".. ولكن المرء لا يستطيع أن يفلت بسهولة من ذلك الشيء الغامض المبهم، الذي نسميه الضمير! فلما قدر لي أن أسمعك تستعرض حادث هنرييت بمثل هذه النظرة الواقعية، خطر لي أنني قد أستطيع أن أضع حدًّا لهذا الوضع الفظيع.. لهذه الحالة التي

تجعلني أذهب دائمًا إلى الماضي، فلا أفتأ أتهم نفسي بنفسي.. خطر لي أنني قد أخلص من هذه الحالة إذا أقنعت نفسي بأن أفضي بصراحة لأي امرئ بقصة ذلك اليوم الأوحد في حياتي.. ولو أنني كنت كاثوليكية – بدلًا من أن أكون من رعايا الكنيسة الإنجليزية – لتخففت من ذنبي بالاعتراف منذ زمن طويل، ولكننا محرومون من هذه السلوى.. لهذا كله أقدم اليوم على هذه المحاولة الغريبة، فألقى إليك بسري، متطهرة منه.. وإني لأدريك أن هذا التصرف مني أمر شاذ، غير عادي.. ولكنك قبلت ما عرضت عليك دون ما تردد، فأشكرك..

"وعلى هذا، فإنني – كما ذكرت من قبل – أود أن أقص عليك ما حدث لي في يوم واحد من أيام حياتي.. أما بقية الأيام، فتبدو غير ذات قيمة، بل إنها قد تبعث الفجر في نفس كل امرئ سواي..

كانت حياتي عادية جدًّا حتى بلغت الثانية والأربعين.. إذ كان أهلي من كبار الملاك في أسكتلندا، وكنا نملك مصانع كبيرة، وضياعًا شاسعة، ونعيش على غرار النبلاء في بلادنا: نقضي الشطر الأكبر من السنة في مزارعنا، ونقضي "الموسم" في لندن.. وتعرفت إلى الرجل الذي صار زوجي، في أحد المجتمعات التي كنت ارتادها، وأنا في الثامنة عشرة من عمري.. وكان ثاني أبناء أسرة "ر" المعروفة، وقد خدم في

الجيش، وقضى عشر سنوات في الهند.. ولم يطل بنا الوقت حتى تزوجنا، وأخذنا نعيش الحياة المترفة التي تحظى بها طبقتنا في المجتمع.. فكنا نقضي ثلاثة أشهر في لندن، وثلاثة في مزارعنا.. أما بقية السنة، فكنا نقضيها متنقلين بين فنادق إيطاليا وأسبانيا وفرنسا، لا يخيم على هنائنا الزوجي أتفه غيم.. وأنجبنا ولدين، هما الآن رجلان في أوسط العمر..

وكنت في الأربعين من عمري، حين مات زوجي فجأة.. إذ كان قد أصيب بداء الكبد، في أثناء الأعوام التي قضاها في البلاد الحارة.. وفقدته بعد أسبوعين عانى فيهما أفظع الآلآم.. وكان ابني الأكبر – حين مات أبوه – قد انخرط في سلك الجيش، أما الأصغر، فكان في الكلية.. وهكذا وجدت نفسي – بين عشية وضحاها – وحيدة تمامًا، لا يؤنس وحشتي أحد.. وكانت هذه الوحدة عذابًا مضينًا لي.. أنا التي ألفت الحياة مع رفاق أحباء، فبدا لي أنني لن أطيق البقاء يومًا واحدًا – بعد ذلك – في البيت الخالي، الذي كان كل ما فيه يذكرني بفجيعتي في زوجي الحبيب، ومن ثم عقدت العزم على أن أكثر من الأسفار في سنواتي المقبلة، لاسيما وأن ولدي لم يكونا قد تزوجا واستقرا.."

"ومنذ تلك اللحظة، بدت لي حياتي خالية من كل غاية، بل

ومن كل نفع في الغالب.. فقد مات الرجل الذي شاطرني كل ساعة، وكل فكرة، ثلاثة وعشرين عامًا، ولم يكن ولداي في حاجة إليّ، بل لقد خشيت أن أنغص عليهما صفو شبابهما بحزني.. ثم إأنني لم أعد أهفو إلى شيء.. وقد سافرت أولًا إلى باريس .. وأخذت أرتاد المتاجر والمتاحف، ولكنني شعرت بالوحشة والملل، إذ كانت المدينة غريبة عني بأهلها.. وكنت أتجنب الناس، إذ لم ترق لي نظرات العطف المهذبة التي كانت تثيرها في أعينهم ملابس الحداد.."

"من العسير عليّ اليوم أن أقص عليك كيف انصرمت تلك الأشهر الأولى الحزينة، المعتمة.. كل ما أذكره هو أن الرغبة في الموت أخذت تلاحقني، ولكني لم أجد الجرأة على أن أعجل بلقاء هذا المصير الذي كنت أشتهيه في لوعتي وأحزاني.."

"ووجدتني في نهاية شهر مارس – من العام الثاني لترملي، والثاني والأربعين من عمري – في (مونت كارلو)، وقد ساقتني إليها الرغبة المستترة في الفرار من حياة لم يعد فيها ما يستهويني، أو يشغل وقتي.. أجل، لم يدفع بي إلى تلك المدينة، في الواقع، سوى الضجر والفراغ اللذين يلقيان على النفس تثاقلًا تحاول أن تجد مهربًا منه في أتفه الأحداث التي تقع.. وكنت كلما فطنت إلى تبلد أحاسيسي، ازددت رغبة في أن ألقي بنفسي في دوامة الحياة وهي منطلقة بأقصى

سرعتها.. فالمرء الذي يفتقد ما يستهويه في الحياة، يجد في الهزات العنيفة التي تصيب حياة الغير، ما يثير أعصابه من جديد.. كما يفعل المسرح والموسيقى في نفوس الرواد والمستمعين.

ولهذا السبب أخذت أكثر من التردد على "الكازينو".. فقد كان يلد لي أن أشاهد أمارات السعادة، أو الشقاء، ترتسم على وجوه الآخرين، في الوقت الذي لم تكن تهتز فيه جارحة واحدة من جوارحي.. أضف إلى هذا أن زوجي – رغم بعده عن النزق –كان يميل إلى التردد على قاعة اللعب، كلما زرنا "الكازينو" في الماضي، فرأيت في الوفاء لعاداته القديمة نوعًا من التعبد في محراب الأحزان".

"وفي تلك القاعة، بدأت الساعات الأربع والعشرون، التي كانت أكثر عنفًا وإثارة من أية لعبة أخرى في دنياي، والتي قلبت مصيري رأسًا على عقب لبضع سنوات.. فقد تناولت الغداء ظهر ذات يوم مع دوقة "م"، وهي سيدة تربطها بأسرتي صلة نسب، ثم جاء الليل، فلم أشعر بتعب يحبب إليّ أن آوي إلى مضجعي بعد العشاء، ومن ثم ولجت قاعة اللعب، ورحت أتسكع من مائدة إلى مائدة، دون أن أشترك في اللعب على الإطلاق، بل كنت أرقب بطريقة خاصة "أولئك اللاعبين المتجمعين هنا وهناك.. وأقول "بطريقة خاصة"، لأن المرحوم زوجي علمنى إياها ذات يوم، إذ رآني

وقد برح بي الضجر لطول تحدقي في الوجوه التي لم تكن تتغير.. وجوه أولئك العجائز المنغصنات الجباه، اللواتي يقضين ساعات طويلة جالسات إلى أولئك المحتالين المحترفين، أو الغانيات المقامرات، هذا الخليط المتنافر، القادم من كافة أرجاء العالم، والذي هو في حقيقته – كما تعلم – أقل رواء وإثارة للخيال من تلك اللوحة التي اعتدنا أن نتخيلها ونحن نقرأ القصص التعسة، فنتصورهم وكأنهم أعلى أمثلة الأناقة، وصفوة الأرستقراطية الأوروبية!.

إنني أصف لك ما كان منذ عشرين عامًا، عندما كانت الأموال وفيرة فكانت الأوراق المالية الجديدة، والعملة الذهبية التي تحمل رسم نابليون، والقطع الكبيرة ذات الخمسة فرنكات، تنهال على موائد اللعب، عندما كان الكازينو – قلعة القمار الفخمة – أروع وأفتن مما هو اليوم، وخاصة بعد أن أعيد بناؤه.. وعندما كان السياح الذين تجلبهم شركة "كوك" يبعثرون الأموال فيه دون وعي ولا حساب!.

ومع كل هذا، كنت أضيق بالتشابه الرتيب، حتى أرشدني زوجي إلى تلك الطريقة المبتكرة لتأمل الناس.. طريقة مثيرة، لا يحس المرء معها بذلك الخمول الذي ينتابه وهو يقف جامدًا كالصنم، بلا حراك.. هذه الطريقة تتلخص في عدم النظر إلى الوجوه على

الإطلاق، وتركيز البصر على صفحة المائدة وحدها.. على هذا المربع الذي لا ترى فيه سوى أيدى اللاعبين، بأدق حركات هذه الأيدي.

ولست أدري إن كان قد قدر لك يومًا أن تمعن النظر في الموائد الخضراء، وأن ترى ذلك المربع الأخضر الذي تترنح داخله الكرة، كشخص ثمل، متنقلة من رقم إلى رقم.. وأوراق النقد، والقطع الفضية والذهبية المستديرة، تتساقط على مربعاته تساقط البذور على الأرض، ليجرفها مراقب اللعب بعد ذلك، حاصدًا إياها بضربة قاضية من مجرفته الشبيهة بالمنجل، أو ليدفعها نحو الرابح!.

العنصر الوحيد الذي كان يختلف في هذه الناحية من المنظر، هو الأيدي.. ذلك الحشد من الأيدي الشاحبة، المرتعشة، أو المرتقبة حول المائدة حتى تحين ساعة العمل.. أيد كلها تحفز، كم جعلها تبدو كحيوان يتأهب للانقضاض، لكل يد منها شكلها الخاص، ولونها الخاص.. أيد عارية، وأيد مثقلة بالخواتم والسلاسل الذهبية البراقة، وأيد كثة الشعر كالحيوانات الكاسرة، وأيد ناعمة بضة تتلوى كالأفاعي! على أنها رغم تباينها، كانت تشابه جميعًا في توتر عضلاتها، وفي حركاتها المنفعلة المرتعشة، فيتنم عن صبر نافد..

وكنت في كل مرة لا أتمالك من أن أتخيل نفسي في ميدان لسباق

الخيل في اللحظة التي تسبق الانطلاق، وقد شدت أعنة الجياد كبحًا لجماحها، حتى لا تنطلق قبل الموعد المحدد.. هكذا تبدو أيدي اللاعبين.. ترتجف، وتتراجع، ثم تندفع.. وهي في ترددها، وفي طريقة إمساكها بالنقود أو الفيشات، وفي توقفها عن الحركة، تفصح عن شخصية اللاعب.. فالأيدي ذات الأظافر الطويلة الهادئة الرزينة تدل على اعتداد مبني على دقة في الحساب، والآيدي المرتجفة تكشف عن يأس.. مائة سجية وخلق، تفضحها في لمح البصر تلك الحركة السريعة التي تبدو من اليد وهي تلتقط الأرباح.. فمن الناس من يفرك الأوراق المالية في يده، ومنهم من ينثرها في حركة عصبية، ومنهم من يقبض عليها ثم يلقي بها بعد ذلك على الأرض دون اكتراث.

ومن الأقوال الدارجة، أن "اللعب يكشف حقيقة اللاعب".، أما أنا فأقول إن يد اللاعب نفسه هي التي تكشف خلال اللعب حقيقته في أوضح صورها.. فجميع الذين يمارسون المقامرة – أو معظمهم على الأصح – يتعلمون كيف يكتمون انفعالاتهم، فلا ترتسم على وجوههم انفعالاتهم الداخلية.. إنهم يسدلون على كل ما يعلو ياقة القميص قناعًا من الجمود البارد، ويجهدون في إخفاء تلك التجاعيد التي تتجمع حول الفم، ويحبسون اهتزازاتهم النفسية

بين أسنانهم وهو يصرون عليها، ويسدلون بسن سرائرهم وأعينهم ستارًا، حتى لا تنعكس ومضات اضطراباتهم خلال نظراتهم، وينسقون عضلات وجوههم في أوضاع مصطنعة توحي بعدم الاكتراث، وهم إذ يركزون كل عنايتهم على وجوههم فينسون أيديهم، ويغفلون عن أن من الناس من يرقبون هذه الأيدي دون سواها، ويستشفون منها ما تحاول إخفاءه الشفة ذات الابتسامة المتكلفة، والنظرات التي تصطنع اللا مبالاة.

وإن اليد لتفضح أعمق أسرارهم دون استحياء، إذ لا مناص من أن تأتي لحظة تفيق فيها الأصابع من السبات الذي كانت تجبر عليه لتبدو هادئة.. وفي اللحظة الفاصلة التي تسقط فيها كرة "الروليت" في الفجوة، وينبعث الصياح الذي يعلن الرقم الرابح، تصدر من هذه الأيدي المائة – أو الخمسمائة – حركة لا إرادية، هي التعبير الفردي الصريح للغريزة البدائية.. فإذا تعود المرء ما تعودته أنا من مراقبة معركة الأيدي هذه، وخبر ما خبرت – بفضل هواية زوجي – من حركات التوتر العصبي الذي يتملك صاحبها، ألفى نفسه ينفعل ويتحمس كما لو كان يشاهد مسرحية، أو يسمع ألحانًا موسيقية مثيرة.

وليس بوسعي أن أصف لك آلاف الحركات التي تصدر من

الأيدي في أثناء اللعب.. فبعض هذه الأيدي حيوانات وحشية، ذات أصابع نحيلة يكسوها الشعر، تنقض على النقود كما ينقض العنكبوت على الذباب.. وبعضها مرتجفة، ذات أظافر شاحبة، تكاد لا تجرؤ على مس هذه النقود.. وسواء أكانت الأيدي مترفعة أو وضيعة، وحشية أو حيية، خبيثة أو مترددة، فإن لكل يد منها طابعا يميزها عن سواها.. بل إن كل يد من يدي الشخص الواحد، تعبر عن حياة تختلف عن حياة الأخرى.. فيما عدا أيدي مراقبي اللعب، فهي آلات صماء في دقتها، وانتظام حركاتها المكتسبة بالمران، وحيادها المطلق إزاء النشاط المستعر في أيدي اللاعبين.. فتراها تدور محدثة صريرًا كذلك الذي يصدر عن باب حديدي يدور حول محور أقيم عليه عداد (مثل باب حديقة الحيوان).. ومع ذلك، فإن لهذه الأيدي المحايدة تأثيرًا عجيبًا، إذ إنها بتناقضها مع الأيدي الشرهة، المتوثبة، تلوح كما لو كانت ذات زي خاص موحد، كرجال الشرطة وسط حشد هائج متمرد!.

أضف إلى ذلك لونًا من المتعة يستشعره المرء إذ ما اندمج – عدة أيام – في هذه العادات والانفعالات فييراها من بعض الأيدي.. على أنه لم تك تنقضي بضعة أيام، حتى أتعرف على أيد جديدة، أفحصها وأضع كلًّا منها في المرتبة التي تلائمها.. كنت أراها

كالآدميين تمامًا، فمنها ما تكون خفيفة الظل، ومنها ما تكون ثقيلة.. وكنت أنفر من عدد كبير منها لفظاظتها وجشعها، حتى إنني لم أكن أتمالك أن أشيح بوجهي عنها كلما وقع بصري عليها، وكأني أرى فيها شيئًا نابيًا! وكانت كل يد جديدة تظهر على مائدة اللعب، حدثًا جديدًا بالنسبة لي، يثير فضولًا واستطلاعًا.. وكثيرًا ما كنت أغفل النظر إلى الوجه الذي يعلو الياقة ويظل جامدًا فوقها بلا حراك، أو الوجه الذي يعلو العنق المزدان بعقد براق، إذا كانت اليدان لامرأة.

وعندما دخلت "الكازينو" في ذلك المساء – الذي بدأت فيه قصتي – مررت بمائدتين اشتد زحام الناس حولهما، حتى إذا اقتربت من الثالثة، بدأت أعد بعض القطع الذهبية، وإذا بي أفاجأ بما أدهشني.. كان الوجوم يسيطر على المائدة.. وجوم صامت مفعم بالتفرز العصبي، حتى ليخيل إليك – لفرط السكون – أنك توشك أن تسمع للصمت ذاته رفيفًا أو حفيفًا.. وفي غمرة هذا الوجوم الذي يسود اللاعبين، عادة عندما تكون الكرة وشيكة الوقوف.. وقد أخذت تتأرجح بين رقمين قبل أن تسقط في ثغرة أحدهما.. في غمرة هذا الوجوم، أدهشني أن أسمع في الجانب المواجه لي صوتًا غريبًا، وقرقعة خيل إليّ أنها تنبعث من عظام تتهشم.. وتطلعت –

على الرغم مني – إلى الجانب الآخر من المائدة، وإذا بي أجفل! فقد رأيت يدين لم أر لهما مثيلًا من قبل، على الإطلاق.. يدين أطبقت كل منهما على الأخرى، كحيوانين يتحفز كل منهما كي يعض الآخر! وكانتا تشتبكان، وتتصاولان في عنف وحشي، فتحدث عظام أصابعها قرقعة أشبه بتلك التي تنبعث من ثمرة الجوز وهي تتكسر!.

أما جمال هاتين اليدين، فكان باهرًا، نادرًا.. كانتا مفرطتي الطول، مسرفتي النحول، ومع ذلك فقد تخللتهما عضلات ذات قوة غير عادية.. وكانتا ناصعتي البياض، تنتهيان بأظافر شاحبة، لامعة، مستديرة في اتساق.. ووجدتني أحدق فيهما طوال السهرة.. أجل، كنت أتأمل في دهشة لا تنضب هاتين اليدين غير العاديتين... اليدين الفريدتين، اللتين لم يكن لهما نظير حقًّا.. أما ما أثار في نفسي دهشة أوشكت أن تكون جزعًا، فقد تمثل في تلك الحمى التي كانت تسري فيهما، وتلك التعبيرات التي كانت تصدر عنهما وهما تشتبكان وتتصارعان.. وأدركت لأول وهلة – إذ رأيتهما – أنهما لرجل فاضت قوته جامحة، فحشد كل انفعالاته في أصابعه، لكي لا تحتبس في أطواء نفسه، فلا تلبث أن تنفجر وينفجر معها كيانه! وفي اللحظة التي هوت فيها الكرة في الفجوة – محدثة بارتطامها صوتًا

مكتومًا – وصاح مراقب اللعب معلنًا الرقم الرابح.. في تلك اللحظة الحاسمة، انفصلت كل من اليدين عن الأخرى، كما لو كانتا حيوانين أردتهما رصاصة واحدة، وارتمتا على المائدة ميتتين، لا منهوكتي القوى فحسب! وكانتا في ارتمائهما تنمان عن ذعر ولوعة تعجز فصاحتي عن وصفهما، وكأنهما باغتتهما صاعقة! ما رأيت قط من قبل – ولا بعد – مثل هاتين اليدين الناطقتين، المعبرتين، كأن كل عضلة فيهما فم.. وكأن شهوة المقامرة تكاد تنبثق من مسامهما!.

وظلت اليدان مستلقيتين على المائدة الخضراء برهة، وكأنهما حيوانان بحريان قذفت بهما الأمواج على الشاطئ، ميتين، يثير منظرهما التقزز.. وما لبثت إحداهما – اليد اليمنى – أن شرعت ترفع أصابعها في عناء، وهي ترجف.. ثم انكمشت، وأخذت تدور حول نفسها مترددة، وإذا بها قد أمسكت بإحدى "الفيشات" في حركة عصبية واضحة، وراحت تديرها – في حيرة – بين السبابة والإبهام، وكأنها عجلة صغيرة.. وفجأة، تراجعت تلك اليد كنمر الذي يتحفز، ثم قذفت بتلك "الفيشة"– من فئة المائة فرنك – إلى وسط المربع الأسود، وكأنها تلفظها، أو تبصقها! وكأنما كانت هذه الحركة إيذانًا لليد اليسرى، فإذا بها تضطرب – بعد أن كانت مستلقية بلا حراك – وتنهض بدورها فتتسلل زاحفة إلى أختها التي

كانت ترتجف بعنف، كما لو كان إلقاء "الفيشة" في المربع الأسود قد أنهكها واستنفد قواها.. ولاحت اليدان، وهما ترتجفان جنبًا إلى جنب، كالأسنان حين تصطك في عنفوان الحمى.. وأخذتا في ارتعاشهما ترتطمان بالمائدة برفق، دون أن تحدثا صوتًا..

لا.. أبدًا.. ما رأيت من قبل – على الإطلاق – يدين أوتيتا مثل هذه القدرة المعبرة الخارقة، التي تجلت في اضطرابهما، واختلاجاتهما العصبية.. فإذا كل ما كان يجري تحت تلك القبة الكبيرة... وإذا الهمهمة السارية في أجواء الحجرات، وصياح مراقبي اللعب، وحركة الناس في غدوهم وذهابهم، بل وحركة الكرة ذاتها، إذ ألقيت – إذ ذاك – من عل، فأخذت تقفز كمجنون في قفص مستدير مصقول القضبان.. كل هذه الصور التي تداخل بعضها في بعض، وامتزجت في تعاقبها، وحطت على الأعصاب بكل ثقلها.. كل هذه بدت لي – فجأة – ميتة.. إذا قيست بتلكما اليدين المرتعشتين، المضطربتين، اللتين استسلمتا للانتظار وهما تنتفضان.. تلكما اليدين العجيبتين اللتين سحرتاني وحملتاني على أن أركز كل انتباهي عليهما وحدهما..

ولم أعد أقوى على المقاومة، لابد من أن أرى وجه الرجل.. الوجه الذي يملك صاحبه هاتين اليدين الساحرتين.. وأرسلت

بصري في حذر وخشية – أجل، خشية، إذ كانت هاتان اليدان تخيفني – فتسلل بصري على طول كمي السترة حتى بلغ الكتفين الضيقتين، وإذا بي أجفل مرتاعة مرة أخرى.. كان الوجه ينطق بنفس تلك اللغة الثائرة، المتطرفة في جموحها وانفعالها.. اللغة التي كانت تنطق بها اليدان.. فقد اجتمع في ذلك الوجه نضال رهيب، وجمال رقيق – يكاد يكون نسويًّا ورجوليًّا – في آن واحد! ما رأيت من قبل وجهًا كذلك الوجه، لا تمت تعبيراته إلى جسد صاحبه بصلة ما، فكأن الوجه وصاحبه شخصان لا علاقة بين كل منهما والآخر في حياته، ولا في أحاسيسه وانفعالاته!.

وأتيح لي – وأنا أحدق فيه من موقفي – أن أتأمله في أناة، فتراءى لي كقناع، أو كرجل من "البلاستيك" لا دبيب للحياة فيه! كانت عينه – تلك العين الجامدة – لا تلتفت يمنة ولا يسرة، اللهم إلا في لحظات خاطفة، وقد قبعت تحت جفنها المفتوح على أقصاه، حدقة سوداء، لا تتحرك، كأنها كرة من زجاج لا حياة فيها، ينعكس عليها طيف الكرة الزرقاء الأخرى التي كانت تدور وتقفز في جنون أرعن، داخل صندوق "الروليت" الصغير، المستدير..

وأكرر مرة أخرى أنني لم أر من قبل مثل ذاك الوجه المنفعل، الفاتن.. كان لشاب في الرابعة والعشرين من عمره تقريبًا.. وكان

وجهًا نحيفًا، لطيفًا، على شيء من الاستطالة، يطفح في مجموعه بآيات ما كان ينتابه من انفعال.. وكان هذا الوجه – كاليدين – خاليًا من كل أثر للرجولة، كما لو كان وجه طفل ينصرف إلى اللعب بكل مشاعره.. على أنني لم ألاحظ كل هذا إلا فيما بعد.. إذ كان الوجه – حين تأملته للمرة الأولى – يستتر خلف تعبيرات صارخة تدل على جشع جنوني مستعر.. كان فمه صغيرًا، مفتوحًا، وقد بدت على أسنانه خلال شفتيه القرمزيتين.. كما استطعت أن أتبين – وأنا على بعد عشر خطوات منه – أن أسنانه كانت تصطك في رعدة محمومة، بينما ظلت الشفتان ثابتتين في انفراجهما.. وانسدلت على جبينه خصلة من شعر أشقر ناعم، لامع، تدلت من حافة رأسه كإنسان على وشك أن يسقط.. وانتابت طاقتي أنفه اختلاجة متواصلة، وكأن موجات صغيرة أخذت تتدافع تحت بشرته، وكان رأسه يزداد انحناء إلى الأمام حتى ليخال الناظر إليه أن ذلك الرأس كان ينجذب إلى الدوامة التي راحت الكرة تدور فيها..

إذ ذاك فقط، أدركت سر العنف الذي كانت يداه تطغيان به.. كان اشتباكهما واصطراعهما يحفظان التوازن لهذا الجسد الذي انتزع من مجال ارتكازه! ومرة أخرى، أجدني مضطرة إلى أن أكرر باستمرار أنني لم أر قط من قبل وجهًا تنبثق منه المشاعر في غزارة دافقة،

ووحشية سافرة، عارية، كذلك الوجه.. ووجدتني أتفرس فيه بكل جوارحي، وأنا مشدوهة، مأخوذة بتلك النظرات المختبلة التي كانت تندلع من عينيه، وهو يرقب الكرة في قفزها، وحركتها، منذ تلك اللحظة لم أعد ألتفت إلى شيء آخر، فقد بدا لي كل ما عداه باهتًا ، صدئًا، لا قيمة له.. ولاح كل شيء مظلمًا إلى جانب ذلك اللهب المنبثق من ذلك الوجه.

وبقيت لا ألتفت إلى شخص آخر سواه نحو ساعة من الزمن، قضيتها في تأمله وحده، وفي تأمل كل حركة من حركاته.. وفجأة، انبعث من عينيه وميض وهاج، وانشقت راحتا يديه المحتقنتين، فانفصلت الأصابع بعضها عن بعض في حركة عنيفة وهي تنتفض.. كان ذلك حين دفع مراقب اللعب إلى اليدين عشرين قطعة ذهبية، فأطبقتا عليهما في شراهة ونهم.. وإذ ذاك أشرق الوجه فجأة، وارتدت إليه ميعة الصبا كاملة، وانبسطت أساريره في رفق، وأبرقت عيناه.. أما جسده المنحني إلى الأمام، فقد اعتدل في رشاقة وخفة.، وانتصب كجسم فارس على صهوة جواده، وقد ازدهاه النصر.. وأخذ رنين القطع الذهبية يتردد بين أصابعه التي راحت تديرها في شغف ووله، فتسقط الواحدة منها على الأخرى، وتتراقص، وتبعث رنينًا..

وما لبث الشاب أن أدار رأسه إلى المائدة من جديد – في قلق – وأخذ يذرع الرقعة الخضراء بنظراته، ككلب صغير يتشمم الأرض بحثًا عن فريسة.. وفجأة، وضع القطع الذهبية جميعًا على أحد المربعات، بحركة عصبية سريعة، وارتد لفوره إلى التربص من جديد، انساب من بين شفتيه ذلك الأزيز المهتز، وعادت اليدان إلى توترهما، وتوارى الوجه الصبياني خلف الرغبة القلقة.. ودام هذا إلى اللحظة التي بلغت فيها خيبة الأمل درجة الانفجار، فتراخت تقلصات يديه، وإذا الوجه الذي كان منذ لحظة يشبه وجه الطفل قد ذبل وأظلم، وخمد بريق عينيه.

حدث كل هذا خلال ثانية واحدة، إذ استقرت الكرة على رقم غير الذي كان قد اختاره.. وخسر.. ومرت ثانيتان حملق الشاب خلالهما في بلاهة وكأنه لا يفهم، ولكن.. ما إن عادت صيحة مراقب اللعب، حتى نبهته كما لو كانت سوطًا ألهب ظهره، فأنشب أصابعه في قطع ذهبية أخرى.. ولم يكن قد استقر على رأي في البداية، فوضع القطع الذهبية على مربع، ثم غير رأيه ووضعها على مربع آخر.. حتى إذا شرعت الكرة في الدوران، سارع – ويده ترتعش – فألقى بورقتين ماليتين مجعدتين على المربع ذاته، كأنما هبط عليه إلهام مفاجئ..

وتعاقب عليه الربح والخسارة، زهاء ساعة تقريبًا، كنت خلالها لا أحيد بصري عن ذلك الوجه المتغير – بتأثير تعاقب الانفعالات في مدها وجزرها – ولا عن تلكما اليدين الفاتنتين اللتين كانتا ترتفعان وتنخفضان كقذيفة على سطح الماء، وقد تجلت على كل عضلة فيهما سلسلة متصلة من صور الأحاسيس التي كانت تخالج صاحبهما .. وما تطلعت في حياتي إلى وجه ممثل مسرحي بمثل هذا الاهتمام الذي رحت أرمق به ذلك الوجه الذي توالت عليه أفواج من كافة الأحاسيس، كما تتعاقب الأضواء والظلال على المناظر الطبيعية.. ولا استغرقت بكل جوارحي في تأمل شيء، قدر استغراقي في التطلع إلى هذه الفورة العارمة، العجيبة، ولو أن إنسانًا راقبني في تلك الفترة، ورأي نظراتي المسددة – التي كانت ثابتة لا تتزحزح – لخيل إليه أنه أمام امرأة منومة تنويمًا مغناطيسيًّا.. إذ كان استغراقي قد سلبني حسي كما يفعل التنويم المغناطيسي تمامًا.

لم أكن أملك أن أكبح نفسي عن النظر إلى هذه التعبيرات المتعاقبة.. وكان كل ما يحيط بي من أضواء، وضحكات، ومخلوقات متناثرة، ونظرات.. كل هذه كانت تطفو حولي كما لو كانت خيالات، أو كسحابة من دخان شاحب، برز في وسطها ذلك الوجه، تحيط به هالة من لهب! لم أعد أسمع شيئًا، أو أحس بشيء، أو أرى الناس حولي

وهم يتدافعون،، لم أعد أبصر سوى تلكما اليدين تمتدان فجأة كالأسلاك لتقذفا بالنقود فوق رقعة اللعب، أو لتجمعاها! ولم أعد التفت إلى الكرة، أو أسمع صوت مراقب اللعب.. ومع ذلك كنت أرى كل ما يدور حولي، مجسمًا، ومضخمًا، بتأثير الانفعالات والاختلاجات التي كانت تنتاب يدي الشاب، كما لو كنت أحيا في حلم، وليس في الواقع .

وهكذا لم أكن بحاجة إلى أن أتطلع إلى مائدة "الروليت" لأتبين ما إذا كانت الكرة قد وقعت على اللون الأحمر أو على اللون الأخضر، وما إذا كانت توقفت أو أنها ما زالت تدور، إذ كانت كل مرحلة من مراحل اللعب تقرأ بحروف من نار على ذلك الوجه الذي استبدت شهوة المقامرة بأعصابه وحركاته.

على الرغم أنه لم تلبث أن حلت لحظة رهيبة.. لحظة كنت أتهيب – في قرارة نفسي – من حلولها طيلة الوقت.. لحظة كانت مخيمة على أعصابي، التي اشتد بها التوتر، كما تخيم العاصفة، قبل انقضاضها فجأة.. فقد بدأت الكرة تتثاقل، محدثة تلك الارتطامات التي تشبه التصفيق الخافت.. ومرة أخرى تأرجحت تلك اللحظة الحاسمة التي انطبقت فيها مائتا شفة لتحبس الأنفاس، إلى أن علا صوت مراقب اللعب، معلنًا في هذه المرة فوز رقم "الصفر"، بينما كانت مجرفته

السريعة الحركة تجمع القطع الذهبية الرنانة وأوراق النقد من جميع جوانب المائدة.. ففي تلك اللحظة، صدرت من اليدين حركة مفعمة بالذعر، إذ وثبتا على شيء ما، لم يكن له وجود.. ثم تهالكتا في إعياء – وكأنهما من الثقل بحيث شدتهما الجاذبية الأرضية إلى المائدة! – وراحتا تختلجان في ألم.. على أن النشاط لم يلبث أن دب فيهما ثانية، فانطلقتا تعدوان – محمومتين – من المائدة إلى الجسم الذي تنتميان إليه، تتسلقان جذعه كقطتين متوحشتين، وتنقبان في الجيوب العليا والسفلى، واليمنى واليسرى، بلهفة منفعلة، لتستوثقا من أنه لم يبق في أي منها قطعة نقدية منسية.. ولكنهما كانتا ترتدان خاويتين دائمًا، ثم لا تلبثان أن تعودا إلى البحث والتنقيب في لهفة، ولكن دون جدوى! وبدأ قرص "الروليت" الصغير يدور من جديد – في تلك الأثناء – فاستأنف اللاعبون لعبهم، وتجاوب رنين القطع النقدية، وأخذت المقاعد تتزحزح، والآف الهمسات الحائرة تملأ البهو بالأقاويل.. وارتجفت أنا، وقد تولاني الجزع، إذ اندمجت – على الرغم مني – في تلك المشاعر جميعها، كما لو كانت أصابعي هي التي راحت تبحث في جنون ويأس عن أية قطعة من النقود قد تكون متوارية في أحد الجيوب، أو في ثنايا السترة التي تهدلت.

وما لبث الشاب أن قفز مستويًا على قدمية فجأة، وكأنه أحس

بتعب مباغت.. وأخذ يشد قامته حتى لا يختنق، بينما هوى المقعد خلفه، مرتطمًا بالأرض في صوت حاد.. ولكنه لم يعبأ بما حدث، ولا التفت إلى جيرانه الذين انكمشوا في دهشة وخوف من ذلك المترنح، الذي لم يلبث أن ابتعد عن المائدة بخطى متثاقلة.

حين رأيت ذلك المنظر، أدركت أن الرجل كان يزجف إلى الموت.. فالذي ينهض عن المائدة بهذا الشكل. لا يمكن أن يكون ذاهبًا إلى فندق، ولا ساعيًا إلى ملهى، ولا ذاهبًا إلى مخدع امرأة أو إلى مقعد في أحد القطارات، وإنما هو يولي وجهه شطر العدم .. كان في وسع أبلد الناس إدراكًا أن يدرك أن هذا الرجل أصبح معدمًا، كان قد قامر بكل ما يملك.. بل قامر بحياته، ثم انطلق بتلك الخطى المتثاقلة، المتعثرة، إلى مكان ما، لا يهمه موقعه، ولكن من المؤكد أنه خارج نطاق الوجود.

وكنت دائمًا أتوجس من أن اللعب هنا لا يقتصر على تنافس على الربح أو الخسارة.. ومن ثم وقع عليّ وقوع الصاعقة أن أرى الحياة تغيض من عيني هذا الشاب فجأة، والموت يبسط صبغته الشاحبة على ذلك الوجه الذي ما يزال في نضارة الفتوة.. فلما نهض من مكانه في عناء، مترنحاً، ضممت قبضتي بشدة، دون وعي مني إذ كنت قد تأثرت بحركاته المرنة إلى أقصى حد، فسرت في

جسدس مشيته المتعثرة، كما سرت انفعالاته في عروقي وأعصابي من قبل.. ولم يسعني أن أقف مكتوفة اليدين، بل وجدتني مسوقة إلى أن أتبعه، وأخذت قدماي تتحركان من تلقاء نفسيهما ودون ما إرادة مني.. كان ذلك دون وعي مني.. لم أكن أنا التي تتصرف، ولكن الذي حدث أنني اندفعت دون ما انتباه إلى نفسي، ولا وعي إلى حقيقة حركاتي أجري نحو الردهة المفضية إلى الخارج..

كان الشاب في غرفة إيداع الثياب، وقد حمل له الخادم معطفه، ولكن ذراعيه لم تعودا تطيعانه، فأسرع الخادم يعاونه على إدخال يديه في كمي المعطف، كما لو كان يساعد عاجزًا أو مشلولًا .. ولمحته يدس أصابعه بطريقة آلية في جيوب صديريته بحثًا عن مبلغ ينفح به الخادم، ولكنها ارتدت خاوية بعد أن غاصت إلى قاع كل جيب.. وإذ ذاك، بدا أنه تذكر فجأة كل ما مر به منذ لحظات، فتمتم موجهًا للخادم بعض كلمات غير مفهومة.. وكما حدث منذ برهة، وثب فجأة إلى الأمام، وهبط سلم الكازينو متعثرًا كالثمل، بينما ظل الخادم لحظة يرمقه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة، نمت في البداية عن ازدراء، ثم لم تلبث أن نمت عن إدراك للحقيقة..

وكان هذا المنظر مثيرًا إلى درجة جعلتني أخجل من وجودي في ذلك المكان.. ووجدتني أشيح بوجهي على الرغم مني، لفرط ما

انتابني من ضيق، إذ خيل إليّ أني أشاهد مسرحية عن مأساة تحل بإنسان لا أعرفه.. ودفعني ذلك الألم الذي استولى على كياني كله إلى أن أتبع الرجل.. فطلبت معطفي، وبحركة آلية غريزية، ودون ما تفكير، اندفعت في الظلام، أقتفي خطواته.

الفصل الثالث

توقفت مسز "س" عن الكلام.. وبقيت ساكنة في مقعدها أمامي، وهي تواصل حديثها دون ما توقف، بذلك الهدوء والوضوح اللذين امتازت بهما، وكانت هذه أول مرة تصمت فيها وبعد تردد قصير، نحت موضوع قصتها جانبًا، واتجهت بالحديث إليّ مباشرة:

"لقد تعهدت أمامك وأمام نفسي بأن أروي لك كل ما حدث بصراحة خالصة من كل شائبة، ولكنني أطالبك بأن تثق في صدق أقوالي ثقة مطلقة، وأن لا تعزو تصرفي هذا إلى بواعث خفية أخجل إذا فكرت اليوم فيها.. لأنك إن فعلت، فسترسل في احتمالات لم يكن لها قط أي ظل من الحقيقة.. ومن ثم، أرى أن أؤكد لك أنني عندما أسرعت في الطريق وراء ذلك المقامر المتداعي، المحطم، لم أكن قد وقعت في غرامه مثلًا بأي حال من الأحوال، لأنني لم أكن أفكر فيه كما قد تفكر امرأة في رجل .. فالواقع أنني وكنت قد تجاوزت الأربعين إذ ذاك لم ألق اعتبارًا لأي رجل قط، بعد وفاة زوجي، بل صار ذلك بالنسبة لي شيئًا دفن مع الماضي.. إنني أوضح لك هذا خصيصًا، إذ لابد من أبينه لك، وإلا فلن يبدو لك كل ما تبع ذلك من أحداث، مفهومًا.. لفرط بشاعته.

ومن ناحية أخرى، يشق على في الواقع أن أصف بدقة ذلك الشعور الذي لم أقو على مقاومته، والذي دفعني إلى تعقب ذلك التعس، كان فيه شيء من الفضول، ولكن الحافز الأكبر عليه كان لونًا من الخوف الرهيب.. أو بالأحرى، التوجس من شيء رهيب شعرت به يستولي على منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها بصري على ذلك الشاب، وليس في الوسع تحليل تلك المشاعر، ولا بحثها ومناقشتها، لاسيما وأنها تأتي متشابكة بعضها ببعض، في قوة وسرعة، ودون ما سابق تدبير أو تفكير.. بل لعل الباعث الذي دفعني إلى ذلك التصرف لا يختلف عن ذلك الحافز الغريزي المحض، الذي يدفع المرء إلى أن يخف إلى إنقاذ طفل يوشك أن يلقي بنفسه تحت عجلات سيارة في الطريق! وإلا، فكيف نبرر تصرف أولئك الذين لا يجيدون السباحة، ومع ذلك يلقون بأنفسهم من فوق قنطرة ؟، إذا رأوا إنسانًا يغرق، رغبة منهم في إنقاذه ؟! إن ثمة قوة خارقة.. إرادة خفية غامضة، هي التي تقع بهم إلى إلقاء أنفسهم في الجلماء، قبل أن ينفسح لهم الوقت الكافي للتفكير في ذلك العمل الجنوني الجريء الذي يقدمون عليه!.

وهكذا كانت حالي تمامًا.. فقد انطلقت – دون ما تفكير أو تدبير، بل دون ما وعي على الإطلاق – أتعقب ذلك التعس، من

قاعة اللعب حتى الباب الخارجي.. ومن الباب الخارجي، إلى فناء "الكازينو".. وإني لأؤمن بأنك.. بل بأن أي امرئ أوتي عينين مبصرتين، ما كان ليقوى على أن يكبح نفسه عن ذلك الفضول القلق، المثير.. فليس أدعى للرثاء والأسى من تصور ذلك الشاب – الذي كان في الرابعة والعشرين من عمره، على الأكثر – وقد أخذ يجر قدميه في عناء، هابطًا السلم، ومتجهًا إلى فناء "الكازينو" الخارجي، مترنحًا وكأنه ثمل، وقد التوت أطرافه وتخلخلت!

وهناك – في الفناء الخارجي للكازينو – تهالك متثاقلًا على أحد المقاعد، وكأنه زكيبة! ومن جديد، ارتجفت حين عاودني الإحساس بأن هذا الرجل قد استنفد كل حيويته.. فلا يمكن أن يتهالك بهذه الطريقة سوى ميت، أو إنسان لم تعد فيه جارحة حية! كان رأسه مائلًا إلى الوراء، ومرتكزًا على مسند المقعد، وذراعاه متدليتان نحو الأرض في استرخاء.. ولو أن عابرًا لمحه تحت الضوء الخافت الواهن – المنبعث من المصابيح – لما ارتاب في أنه جثة فاقدة الحياة!.

وهكذا اعتبرته أنا في تلك اللحظة!، وليس بوسعي أن أفسر كيف تبلورت هذه الصورة أمام ناظري فجأة.. ولكن، هكذا كنت أراه إذ ذاك.. كأني كنت أرى حقيقة بشعة مروعة.. كأني كنت أشهد جثة! وكنت واثقة تمام الثقة من أنه يحمل مسدسًا في جيبه، ومن أن

جسمه هذا لن يلبث أن يكتشف في اليوم التالي على هذا المقعد، أو على سواه، هامدًا، غارقًا في بركة من الدم! كان شكله – في هذا الوضع – يشبه الحجر الذي تقذف به هاوية، فيظل يتدحرج دون توقف حتى يصل إلى قرارها.. أبدًا لم يقدر لي أن أرى من قبل جسدًا في وضع ينم عن اليأس وإعياء، مثل هذا!.

"والآن، تخيل موقفي! لقد وجدت نفسي على بعد عشرين أو ثلاثين خطوة، خلف مقعد استقر عليه رجل فاقد الحركة، متداع.. واحترت ماذا أفعل! كنت – من ناحية – مدفوعة بالرغبة في إغاثته.. ومن ناحية أخرى، كان يصدني الخوف من مخاطبة رجل غريب في الطريق.. وهو خوف متولد عن التربية والوراثة! وكانت مصابيح الغاز ترسل ضوأها مستديرًا، شاحبًا، نحو السماء الملبدة بالغيوم.. والمارة القلائل يسرعون الخطى، إذ كان الليل قد أوشك أن ينتصف، ومن ثم كنت بمفردي – تقريبًا – في المنتزه، مع ذلك الرجل الذي كان على شفا الانتحار .

واستجمعت قواي خمس أو ست مرات، وهممت بالاقتراب منه، ولكني كنت أتراجع بدافع الحياء، أو بدافع من تلك الغريزة، أو ذلك الإحساس العميق الذي يوحي إلينا بأن من يخف لنجدتهم! وفي غمرة هذا الموقف، تبينت بوضوح مدى حماقتي وطيشي وحرج

مركزي.. لم أستطع أن أتكلم ولا أن أنصرف ولا أن أفعل شيئًا، ولا أن أترك الشاب وشانه، صدقني إذا قلت إنني ظللت على هذه الحال في تلك البقعة – زهاء ساعة.. لم تشأ أن تنتهي، بينما كانت أمواج البحر غير المنظورة تنبه الزمن بالآلاف متعاقبة من خفقاتها الخفيفة وأنا ما زلت حائرة مضطربة إزاء هذه الصورة التي كانت تمثل النهاية الحزينة لمخلوق من البشر!

أجل.. لم أجد من نفسي جرأة على أي قول، أو أي عمل، وكان من الممكن أن أقضي النصف الباقي من الليل في الانتظار على هذا النحو، أو أن أعود أدراجي، في نهاية الأمر بدافع من الأنانية.. نعم، أعتقد أنني كنت قررت بالفعل أن أترك هذه الحزمة من التعاسة لمصيرها، لولا أن تغلبت على ترددي قوة خارقة.. إذ بدأت تمطر، كانت الرياح قد ظلت الليل بطوله تجمع من فوق البحر سحب الربيع المثقلة بالبخار حتى إن المرء كان يحس برئتيه وقلبه، أعقبها سيل منهمر من تلك السحب المليئة التي كانت الريح تطاردها.. ووجدتني أحتمي – دون أن أفطن – بسقف إحدى مظلات المتنزه.. ومع أنني استبقيت مظلتي مفتوحة، إلا أن السيل الدافق نثر على ملابسي"كتلًا" من الماء.. بل إنني شعرت بالرذاذ المنبعث من ارتطام القطرات الثقيلة بالأرض يصيب وجهي ويدي..

ولكن.. شد ما كان المنظر رهيبًا، حتى أنني ما زلت إلى اليوم أشعر بغصة في حلقي كلما تذكرت.. أقول: ولكن التعس بقى.. رغم كل هذا – جامدًا في مقعد، لا تبدو منه أية حركة على الإطلاق!، وظل الماء يتدفق ويجري في المسارب، بينما كانت عجلات العربات تتناهى إلى سمعي من ناحية المدينة.. وكان الناس يجرون هنا وهناك، وقد تسربلوا بالمعاطف الضافية.. كان كل مخلوق حي ينكمش – من الطبيعة الثائرة – على كل إنسان وحيوان.. فيما عدا تلك الحزمة الآدمية السوداء، التي ظلت في مكانها على المقعد دون حراك!.

ولقد ذكرت لك من قبل أن هذا الرجل أوتي مقدرة خارقة على التعبير – بمرونة – عن مشاعره، بحركته وإيماءاته، على أنه لم يكن في الوجود ما هو أقوى في التعبير عن اليأس، وعن التخلي الكامل عن النفس، وعن الموت الحي من ذلك الجمود.. تلك الحال من فقدان الحركة وفقدان الشعور تحت وابل المطر.. وذلك التخاذل البالغ، الذي حال بين الرجل والوقوف ليخطو الخطوات القلائل اللازمة كي يبلغ أي ملجأ يحتمي به .. كان عدم اكتراثه بنفسه قد بلغ حجمًا لا تصدقه العين.. أبدًا لم يقدر لمثال او لشاعر ولو كان ميكل أنجلو أو دانتي أن يصور لي كيف يكون مظهر اليأس الطاغي، والتعاسة المطلقة في الدنيا، ذلك التصوير القوي المثير الذي تجلى

في مسلك ذلك المخلوق الذي ترك نفسه تغرق في العاصفة.. فقد بلغ من الانحلال والتخاذل مبلغًا عجز معه عن الإتيان بأية حركة.

ولم استطع إلى المقاومة سبيلًا، إذ لم يكن ثمة بد من عمل شيء.. فما لبثت أن وثبت تحت المطر الغزير الذي كان يتساقط بعنف، فهززت تلك الحزمة البشرية التي كانت على المقعد، والتي أغرقها السيل المنهمر.. وقلت له وأنا أمسك بذراعيه: "تعال".. وتطلع إليّ – في عناء – وجه غامض المعالم.. وخيل إليّ أن دبيبًا من الحركة يسري في أوصاله، ولكنه لم يفقه ندائي.. فقلت وأنا أجره من كم معطفه المبتل، وقد أوشكت لهجتي أن تنم عن غضب: "تعال".. فنهض إذ ذاك في بطء، مسلوب الإرادة، مترنحًا.. وسألني: "ماذا تريدين؟".

"ولم أجد لسؤاله جوابًا، فقد كنت لا أدري إلى أين أذهب به.. لم يكن يعنيني سوى أن أنتزعه من ذلك المطر الغزير البارد، ومن ذلك التخاذل وعدم الاكتراث اللذين كانا بمنزلة الانتحار ، واللذين أبقياه في ذلك المكان فريسة ليأس قاتل! وظللت ممسكة بذراعه، ثم أخذت أجر تلك الحزمة البشرية، حتى وصلت بها إلى "كشك" بائعة الزهور، إذ كان لسقفه حافة منبسطة قليلًا، تستطيع أن تحمي الرجل من المياه التي كانت تنصب انصبابًا، فتدفعها الريح في عنف، لم أكن

قد فكرت في شيء.. بل لم أكن أبغي سوى هذا، إذ لم يكن يشغل فكري سوى أمر واحد: هو أن أسلم ذلك الرجل إلى ملجأ.. إلى مكان آمن من البلل.

وهكذا وجدنا نفسينا جنبًا إلى جنب في ذلك الحيز الضيق الذي احتمينا به، ومن خلفنا باب "الكشك" المغلق، وفوق رأسينا حافة السقف التي كانت من الضيق بحيث إن مياه المطر الدافقة كانت تسلل عبرها، لتقذفنا برشاش تحمله لفحات الهواء الشديدة إلى ملابسنا ووجهينا.. ولم يلبث الموقف أن أصبح لا يطاق! فما كنت أملك – رغم كل الاعتبارات – أن أبقى أكثر مما بقيت إلى جوار هذا الغريب المثقل بالبلل.. كما كان من المستحيل على أن أتخلى عنه بعد أن زحزحته عن مكانه، لمجرد رغبتي في تركه، ودون أن أحدثه بشيء! كانت الضرورة تحتم أن أفعل شيئًا! وما لبثت أن انتهيت رويدًا إلى فكرة صائبة، واضحة.. فكرت في أن خير ما أستطيع أن أفعله، هو أن أرافقه في عربة إلى المكان الذي يقيم فيه، ثم أعود إلى حيث كنت أقيم.. ولسوف يعرف في غده كيف يتصرف في مصيره..

ومن ثم سألت الرجل الواقف بجواري، والذي كان يحملق في الليل البهيم: "أين تقيم؟ ".. فقال: "لا مأوى لي.. لقد حضرت الليلة بالذات من نيس، ولا سبيل لأحد أن يرافقني "ولم أدرك في

الحال ما كان الرجل يرمي إليه، ولكنني فهمت فيما بعد أنه كان يظن أنني.. أنني من أولئك النسوة اللاتي تحوم أفواجهن جول "الكازينو" في الليل، أملًا في الظفر ببعض المال من اللاعبين المحظوظين، أو ممن لعبت الخمر برؤوسهم..

ترى كيف كان من الممكن أن يظن غير ذلك؟ فإن ظنونه لم تبعد كثيرًا عن الحقيقة، فأنا ما زلت أشعر – إذ أروي لك الآن قصتي – بغرابة موقفي في ذلك الوقت! وإلا، فأية فكرة أخرى كان يمكن أن تراوده، وقد انتزعته من مقعده، وجررته معي دون ما حرج أو تردد ؟!.. ما كان هذا في الحق مسلك سيدة محترمة! بيد أن هذا لم يخطر ببالي إذ ذاك، ولم أفطن – إلا فيما بعد، وحين فات الأوان – إلى مدى ازدرائه المقذع لي، ولو كنت أدركت لفوري مغزى كلامه، ما انطلقت من فمي هذه الألفاظ التي كانت خليقة بأن تدعم ظنونه الخاطئة، إذ وجدتني أقول له:

– استأجر الآن حجرة في فندق، فليس بوسعك أن تبقى هنا.. يجب أن تعثر لك على مأوى في الحال.

وإذ ذاك فقط، أدركت ظنه الفظيع، إذ قال في شيء من السخرية، ودون أن يلتفت نحوي: "لا لست بحاجة إلى غرفة.. لم أعد بحاجة إلى شيء، فلا تتعبي نفسك لا منفعة ترجى مني. لقد

أخطأت الاختيار، فلست أملك نقودًا "قال هذه الكلمات في لهجة بشعة، وفي استهتار مثير..

وكان يبدو – في وقفته المسترخية وطريقته في الاعتماد على سياج "الكشك"– مثيرًا للاشمئزاز، إذ كان خائر القوى، مبتلًا حتى عظامه.. وأثار مسلكه في نفسي ألمًا شديدًا لم يدع لي وقتًا بالإحساس بالإهانة التي وجهها إليّ في وقاحة وحماقة.. كان الشعور الذي داخلني حين رأيته يغادر بهو "الكازينو" مترنحًا، والذي رافقني طوال تلك الساعة التي لا تخطر ببال.. الشعور بأنني أرى إنسانًا – في عنفوان الشباب ومقتبل الحياة – يسعى إلى الموت، فمن واجبي أن أنقذه.. لذلك ما لبثت أن دنوت منه قائلة: "لا تحمل للمال همًا، وتعال! إنك لا تستطيع البقاء هنا طويلًا، سأبحث لك عن مأوى لا تقلق، فما عليك إلا أن تتبعني".

وتحرك رأس الشاب في إيماءة تدل على أنه اقتنع بجوابي، إذ كان المطر ينهمر حولنا في عنف محدثًا خريرًا عاليًا، وينساب تحت أقدامنا في غزارة.. وأحسست خلال الظلام بأنه يجاهد كي يتأمل وجهي للمرة الأولى.. وبدا كأن جسمه قد أخذ يستفيق من سباته، ثم قال: "ليكن ما تشائين.. كل الأمور تستوي عندي.. لم لا؟ لننصرف".

وفتحت مظلتي، فاقترب مني، وأنفذ ذراعه تحت ذراعي،

فشعرت بالاشمئزاز من هذا التبسيط المفاجئ.. أجل ، أزعجني إقدامه على رفع الكلفة، فداخلني ذعر نفذ إلى أعماق قلبي، ولكني لم أجد الجرأة على أن أصد الرجل عن هذه الألفة، فإن صدي كان كفيلًا بأن يرده إلى الهاوية، فيضيع كل ما بذلت حتى الآن بددًا.

وسرنا بضع خطوات في اتجاه "الكازينو".. وإذ ذاك فقط أدركت أنني تورطت معه.. ورأيت – بعد تفكير سريع – أن أفضل الحلول هو أن أصحبه إلى فندق، ثم أضع في يده بعض النقود، ليستطيع أن يدفع أجر غرفته، وأن يسافر إلى "نيس".. لم يخطر ببالي قط أي شيء آخر! وإذ كانت العربات تمر تباعًا وهي مسرعة، أمام الكازينو، فقد استدعيت إحداها.. وصعدنا إليها.. وعندما سألني الحوذي عن مقصدنا، لم أدر – في البداية – بماذا أجيبه.. ثم خطر لي بغتة أن هذا الرجل الغارق في البلل من رأسه إلى قدميه – والذي كان إلى جواري – لا يمكن أن يجد ترحيبًا في فندق محترم.. كذلك لم يدر بخلدي قط – لقلة تجربتي – أن من المحتمل أن يرتاب أحد في أمري وأنا على ذاك الوضع مع شاب، فاكتفيت بأن قلت له للحوذي "إلى أي فندق صغير".

وألهب الحوذي الغارق في الماء ظهر جواده بقوة.. أما الأجنبي الذي كان يجلس إلى جواري، فقد بقى صامتًا، بينما أخذت عجلات العربة

تقرقع في سيرها، والماء يرتطم بنوافذ العربة في عنف، وخيل إليّ وأنا في ذلك الحيز الضيق، المعتم، أنني برفقة ميت في تابوت! وحاولت أن أفكر.. أن أوفق إلى كلام أخفف به غرابة وقسوة هذه الزمالة الليلية، ولكنني لم أهتد إلى شيء! وإن هي إلا دقائق، حتى توقفت العربة عن المسير، فهبطت، ونقدت الحوذي أجره، بينما كان الشاب قد هبط وأقفل باب العربة، والنعاس يغالبه.. ووجدنا نفسينا أمام باب فندق لم أكن أعرفه، وفوق رأسينا مظلة زجاجية تعلو الباب، وتقينا المطر الذي كان يتساقط في استرسال ممل، فظيع، فيشق انسياله الليل البهيم.

واستند الشاب إلى الحائط على الرغم منه، والماء يقطر من قبعته ومن ثيابه المهدلة، كما لو كان ينساب من ميزاب.. كان كغريق انتشل من اليم، ولم يسترد بعد رشده تمامًا! وأخذ الماء يتجمع حول البقعة الصغيرة التي وقف فيها.. على أنه لم يبذل أقل جهد كي يهز نفسه فيخرجها من هذا الخور، أو ينفض عن قبعته الماء الذي كان يتقاطر باستمرار على جبهته ووجهه، بل ظل جامدًا في وقفته.. وإنني لأعجز عن أن أصف لك مدى تأثري لمنظر هذا الإنسان المهدم.. ولكن، كان لابد من تصرف ينقذ الموقف، ومن ثم وضعت يدي في جيبي وقلت له:

– هاك مائة فرنك تدفع منها أجر الغرفة ثم تسافر غدًا إلى "نيس"..

فتطلع إليّ بدهشة، بينما استطردت قائلة، إذ لاحظت تردده:

لقد كنت أراقبك في قاعة اللعب، وعرفت أنك خسرت كل ما معك، فخشيت أن تقدم على حماقة.. ليس من العار في شيء أن تقبل معونة.. هيا، خذ".

ولكنه دفع يدي بقوة لم أكن أتوقعها منه، وقال: "إنك فتاة طيبة، فلا تبعثري نقودك. لم يعد هناك ما يمكن عمله لي، ولم يعد يهمني إذا حظيت الليلة بمرقد أو لم أحظ فغدًا ينتهي كل شيء لم يعد هناك مجال لأمل".

فهتفت في إصرار: "لا.. يجب أن تقبل هذا المبلغ، ولسوف يتغير رأيك غدًا.. أما الآن، فادخل الفندق، وانعم بنوم هادئ.. إن الليل خير صديق تأتمنه على متاعبك... حتى إذا أقبل النهار ، فسوف تجد الأمور على حال تناقض ما يبدو لك الآن".

وإذ حاولت أن أدس النقود في يده مرة أخرى، دفعني ببعض العنف، مرددًا بصوت أجش "ليس لهذا من نفع.. من الخير أن أنفذ ما أنا مقدم عليه، خارج الفندق، حتى لا ألطخ حجرة أصحاب هذه الدار بالدم .. لن تنقذني مائة فرنك، ولا ألف فرنك.. لن يكون لما يتبقى من هذه الفرنكات من أثر سوى أن تردني مرة أخرى إلى الكازينو غدًا، فلا أبرحه حتى أخسرها جميعًا.. لماذا أبدأ من جديد؟ لقد عانيت ما فيه الكفاية ".

ليس بوسعك أن تتصور ما أحدثه ذلك الصوت الأجش من أثر في نفسي! قدر موقفي! تصور إنسانًا، شابًا، ذكيًا، مليئًا بالحياة والصحة، يقف على بعد خطوتين منك، وما لم يستخدم المرء معه كل حيلة، فإن هذا الشباب المزدهر، المفكر، المتكلم، المتهدج الأنفاس، لن يلبث أن يستحيل إلى جثة هامدة، في خلال ساعتين! لقد استبدت بي إذ ذاك رغبة جامحة لي أن أذلل إصراره الجنوني، فأمسكت بذراعه قائلة: "كف عن هذا الهذيان الأخرق! ستدخل الفندق وتستأجر غرفة، وسآتيك صباح غد فأصحبك إلى المحطة.. إذ يجب أن تغادر هذا المكان، وأن تعود إلى بلدك غدًا.. ولن يهدأ لي بال حتى أراك بنفسي ابتعت تذكرة السفر، واحتللت مكانك في القطار.. إن الإنسان لا يبدد شبابه بالانتحار لمجرد أنه خسر بضع مئات، أو بضع آلاف من الفرنكات.. هذا جبن.. إنها نزوة حمقاء من نزوات الغضب والسخط.. ولسوف تتبين غدًا أنني على حق!".

فقال في لهجة أفعمت بالسخرية والمرارة إلى درجة غريبة: "غدًا! غدًا! ليتك تعلمين أين سأكون غدًا! بل ليتني أعلم – أنا نفسي – أين أكون غدًا! والواقع أنني جد مشوق إلى معرفة هذا.. لا.. عودي إلى دارك يا صغيرتي، ولا تتعبي نفسك، ولا تبددي مالك!".. غير أنني لم أشأ أن أتراجع، فقد كدت أجن لفرط سخطي وحنقي، ومن

ثم أمسكت يده بعنف، ودسست فيها الورقة المالية قسرًا، وأنا أقول : "خذ هذه، وادخل في الحال".. وسرت إلى الباب في حزم فضغطت زر الجرس، وأنا أقول: "ها قد ضغطت الجرس، ولن يلبث حارس الباب أن يفد، فتصعد لتنام.. ولسوف تجدني في انتظارك أمام الفندق في الساعة التاسعة غدًا، لأصحبك فورًا إلى المحطة.. ولا تشغل بالك بما يعقب ذلك، إذ سأدبر لك كل ما يمكنك من العودة إلى بلدك، أما الآن فاذهب، ونم في هدوء، ولا تفكر في أي شيء مطلقًا!.

وانبعث صرير المفتاح في قفل الباب في تلك اللحظة، ثم ظهر الحارس وإذ بالشاب يقول لي فجأة، وفي صوت حاد حازم، آمر: "تعالي".

وأحسست بأصابعه الحديدية تطوق معصمي بقوة فجزعت، وكأنما مستني صاعقة، وأردت أن أزود عن نفسي غير أن إرادتي تبددت.. ولعلك تفهم موقفي.. كنت... لقد خجلت من أن أشتبك في عراك مع شخص غريب.. وهكذا وجدتني فجأة في بهو الفندق.. تمنيت أن أتكلم.. أن أقول شيئًا.. ولكن صوتي احتبس في حلقي.. كانت يده تمسك بذراعي بقوة.. وأحسست، وأنا في شبه غيبوبة، بأنه يجرني دون أن أفطن إلى ما ينبغي أن أفعل إلى أعلى السلم.. ثم سمعت صرير مفتاح..

وفجأة انتبهت إلى أنني وحيدة مع ذلك الشاب الغريب في حجرة غريبة، في فندق مجهول، لم أعرف اسمه حتى اليوم.

الفصل الرابع



توقفت مسز "س" عن الحديث فجأة.. وهضت مغادرة مقعدها، وقد أحسست بصوتها يعصاها، ويأبى أن يغادر فمها، فبقيت لحظات وهي صامتة.. فاتجهت إلى النافذة، وراحت تتطلع خلال زجاجها لبضع دقائق، أو لعلها لم تكن تتطلع، وإنما استراحت إذ ألصقت جبهتها بزجاج النافذة البارد! الواقع أنني لم أجرؤ على أن أثبت من هذا تمامًا، إذ آلمني أن أرقب السيدة العجوز و هيفريسة لانفعالاتها.. ولبثت في مكأني صامتًا، لا أسأل، ولا أحدث صوتًا.. ومكثت أنتظر حتى عادت في خطى هادئة، وجلست أمامي، قائلة:

حسنًا.. لقد فرغت من سرد أفظع ما في القصة.. وأرجو أن تصدقني إذا أكدت لك مرة أخرى، وأقسمت بكل مقدس عندي – بشرفي وبحياة أولادي – أنه لم يكن قد خطر ببالي مطلقًا، حتى تلك اللحظة، أي خاطر عن احتمال وقوع أية علاقة بدنية بيني وبين الشاب الغريب، وإنما كنت – بحق – مسلوبة الإرادة.. لقد انزلقت فجأة من حياتي المستقيمة إلى هذا الموقف – دونما وعي – كمن تعثرت في شرك! لقد أقسمت لك بأن ألتزم الصدق إزاك وإزاء نفسي .. ومع تمسكي بقسمي أؤكد لك للمرة الثانية أنني لم

أكن مدفوعة بشيء – على الإطلاق – سوى الرغبة الجامحة في أن أسدي عونًا، فلم يداخلني أي شعور شخصي.. وأكرر لك مرة أخرى أني تورطت في هذه المغامرة المخزية دون ما رغبة أو توقع!.

وأرجو أن تعفيني من أن أروي لك ما حدث في تلك الغرفة.. أبدًا لم أنس، ولن أنسى دقيقة واحدة من دقائق تلك الليلة.. كنت في صراع مع إنسان.. لكي أنقذ حياته! أجل، وأكرر القول بأن الأمر – في ذلك الصراع – كان متعلقًا بحياة رجل أو موته.. كانت كل جارحة في كياني تشعر بإحساس جازم، لا يشوبه أدنى شك، بأن ذلك الرجل.. ذلك الغريب – الذي كان إذ ذاك يقف وإحدى قدميه في العدم – كان أشبه بالغريق الذي يتشبث بآخر قشة في لهفة الإنسان وانفعاله حين يحس بقبضة الموت! كان يتعلق بي في تشبث المرء الذي يرى الهاوية تحت قدميه.. أما أنا، فقد استجمعت كل قواي، بل كل ما في كياني من طاقة، لكي أنقذه!.

إن المرء لا يعيش ساعة إلا مرة واحدة في حياته.. وليس كل امرئ يعيشها، ولكن واحدًا من ملايين الناس هو الذي يقع له هذا! وما كنت لأعرف، قبل هذا الحادث الفظيع ولو على سبيل الحدس مدى تلك القوة المستميتة، ولا ذلك السعار الجامح، اللذين يستعين بهما رجل تخلت عنه الدنيا.. رجل ضائع، كي يتشبث بأقل قطرة

حمراء من دم الحياة، للمرة الأخيرة! ولما كنت قد قضيت عشرين عامًا بمنأى عن كل ما في هذا الوجود من قوى الشر، فقد شق عليّ إذ ذاك أن أتبين الروعة العجيبة، الخارقة التي تحشد الطبيعة بها أحيانًا في بضعة أنفاس لاهثة، كل ما تملك من حرارة وبرودة، ومن حياة وموت، ومن هناءة وشقاء!.

كانت تلك الليلة مفعمة بالصراع، والكلام، والشهوة، والغضب، والحقد، والدموع، والضراعة، والنشوة، حتى خيل إليّ أن هذه الليلة الواحدة دامت ألف عام! فهذان الآدميان – هو وأنا – اللذان ترديا، وانحدرا معًا إلى قرار الهاوية، يحمل أحدهما في أعماقه ثورة الموت، بينما تجرد الآخر من كل احساس.. هذان الآدميان اللذان خرجا من هذا الصراع وقد تغيرت معالم كل منهما تغيرًا تامًا.. خرج كل منهما مختلفا، متباينًا كل التباين عما كان.. خرج بروح جديدة، ومشاعر جديدة!.

على أنني لن أتحدث عن تلك الليلة، فلست أبغي – ولا أنا راغبة – في أن أكشف عما جرى فيها، ولو أنه لابد من أن أذكر شيئًا عن تلك الليلة الدقيقة الفذة التي استيقظت فيها، في صبيحة اليوم التالي.. فلقد صحوت من نوم عميق صقيل.. من ظلمة حالكة لم يكن لي بها عهد من قبل، مطلقًا.. واستغرقت وقتًا طويلًا حتى

استطعت أن أفتح عيني، فإذا أول ما أرى سقف غرفة مجهولة يعلوني.. ثم تبينت أنني كنت في مكان غريب، مجهول مني.. مكان كئيب، لم أدر أي ذنب رماني فيه.. وجاهدت – في البداية – كي أقنع نفسي بأنني في حلم.. حلم جلي، واضح، ساقني إليه ذلك النوم الثقيل، المليء بالرؤى المضطربة.. ولكن ضوء الصباح كان يتجلى خلال النوافذ، وجلبة الطريق تتناهى إلى سمعي: قرقعة العربات، وأجراس قاطرات الترام، وأصوات الناس.. فأدركت أنني لم أكن حالمة، بل مستيقظة.. ورحت أناضل كي أستعيد شتات ذهني.. وفيما كنت ألتفت جانبًا، رأيت – ولن أستطيع أن أصف لك الذعر الذي غشيني إذ ذاك – رأيت رجلًا مجهولًا، ينام إلى جواري في السرير الواسع.. كان غريبًا.. غريبًا... غريبًا تمامًا .. رجلًا شبه عار.. لا أعرفه .

لا .. إنني واثقة من أن لا سبيل إلى وصف ذلك الذعر الذي استولى عليّ في عنف، حتى جعلني أتهالك في الفراش مرة أخرى، جامدة الحراك.. على أنني لم أصب بإغماء حقيقي أفقدني الرشد، وإنما – على النقيض – رأيت كل شيء ينجلي لإدراكي بسرعة البرق، تبينته، ولكني لم أدرك له كنهًا.. فإذا بي أتمنى الموت لفرط اشمئزازي واستحيائي من أن أجد نفسي بغتة، وفي هذا الوضع، مع

مخلوق غريب عني تمامًا، وفي فراش غريب، في فندق وضيع، وغرفة تثير الشبهات! وما زلت إلى اليوم أذكر أن قلبي كف عن الوجيب، وأن أنفاسي احتبست، وكأنما كنت أبغي بذلك أن أضع نهاية لحياتي ، ولوعي بوجه خاص.. ذلك الوعي الذي انجلى بدرجة هائلة، فأدرك كل شيء.. ولكنه مع ذلك لم يفقه لشيء معنى.

ولست أدري كم من الوقت قضيته في هذا الوضع، وقد تيبست أطرافي جميعًا، كما تتيبس أجساد الموتى في أكفانها... فأغمضت عيني، وتضرعت إلى كل ما في السماء من قوى أن لا يكون كل هذا حقيقة... ولكن حواسي المرهفة لم تدع لي مجالا للارتياب.. إذ كنت أسمع في الحجرة المجاورة أشخاصًا يتكلمون، وما يجري، وخطوات في الردهة.. كلها علامات تؤكد يقظة حواسي.. وصحة ما وعته.. يا للقسوة .

قلت إنه ليس في وسعي أن أحدد مدى الوقت الذي استغرقه هذا الموقف الفظيع.. فإن الزمن في موقف كهذا لا يقاس بثواني الحياة العادية.. ولكن ما لبث أن استحوذ عليّ خوف من نوع آخر.. الخوف البشع من أن يستيقظ ذلك الغريب الذي لم أكن أعرف اسمه فيخاطبني..

وأدركت لفوري أن ليس أمامي سوى مخرج واحد. هو أن ارتدي

ملابسي وأفر قبل أن يستيقظ ذلك الغريب.. حتى لا يراني ولا أتحدث إليه .. كان لابد من أن أنجو بنفسي في الوقت المناسب، وأن أنصرف. أن أنصرف لأسترجع حياتي الأصلية بأية طريقة، ولأعود إلى الفندق الذي أقيم فيه، ثم أغادر في أول قطار هذه البقعة اللعينة.. أن أهجر هذه البلدة كي لا ألتقي بعد ذلك مطلقًا بذلك الرجل، فلا أرى عينيه، ولا أرى فيه شاهدًا، وشريكًا، وقاضيًا يدينني.

وتغلبت هذه الفكرة على الجمود الشارد الذي اعتراني، فتسللت من الفراش في حذر وبحركات اللص الحريص، وتناولت ملابسي بأطراف أناملي، وأنا أتحرك في احتراس تام حتى لا أحدث صوتًا،، وارتديت ثيابي في حذر بالغ، وأنا أخشى أن يستيقظ بين لحظة وأخرى، لم تبق سوى قبعتي التي كانت في الجانب الآخر من الفراش، وسرت على أطراف أصابعي أسعى إليها، وفي تلك اللحظة لم أتمالك من أن ألقى نظرة على وجه ذلك الرجل الذي هوى في حياتي كحجر انفصل بغتة عن حافة بناء.. ولم أكن أبغي أن ألقي عليه سوى نظرة واحدة، ولكن.. حدث إذ ذاك أمر عجيب.. تبينت أن الشاب الغريب النائم، كان غريبًا حقًا بالنسبة لي.. فلم أتعرف في معالمه لأول وهلة على ذلك الوجه الذي رأيته بالأمس،

إذ تلاشت تلك الأسارير المتوترة، المتشنجة التي كان الانفعال يمسخها، وإذ أمامي وجه آخر وجه صغير. وجه صبي يتألق – والحق يقال – بالطهر والسذاجة.. وبدت الشفتان، اللتان كانتا بالأمس متقلصتين بين النواجذ، وقد انفرجتا عن ابتسامة حالمة، عذبة.. وتهدلت على جبينه خصلات ناعمة من شعره الأشقر، بينما تتابعت أنفاسه في هدوء وقد سرت الراحة في جسده كموجات وضاءة تنبعث من صدره.

ولعلك تذكر ما سبق أن قلته من أنني لم أر أبدًا في حياتي علامات الجشع الضاري، والانفعال العارم، تتجلى بمثل تلك القوة وذلك العنف اللذين تجلت بهما على وجه ذلك الشاب الغريب، حين كان جالسًا إلى مائدة الميسر.. أما الآن فأقول لك إنني لم أر قط على وجه ما – ولا وجوه الأطفال الرضع، التي تحف بها هالات من الرقة الملائكية – مثل ذلك التعبير الذي نم عن طهر صاف، وعن نعاس هادئ.. كانت كافة المشاعر ترتسم على ذلك الوجه في روعة لا نظير لها، كما لو كان يحظى براحة فردوسية.. بتحرر من جميع الهموم النفسية.. بخلاص وتخفف من المتاعب وأسباب الشقاء!.

وما إن تراءى لي في هذا المظهر الرائع، حتى انجابت عني كل

رهبة، وانزاح كل قلق، كما ينزاح المعطف الأسود الثقيل عن المنكبين.. ولم أعد أشعر باستحياء.. بل إنني – على العكس – أحسست بالسعادة! وفجأة.. بدأت أدرك مغزى هذا الحادث المروع، غير المفهوم بالنسبة لي.. وشعرت بالزهو والغبطة حين تصورت أنه لولا رعايتي، لكان هذا الشاب اللطيف الجميل – النائم في وداعة الأزهار – ملقى إلى جوار صخرة، محطمًا، غارقا في الدماء، وقد تهشم وجهه، وجحظت عيناه، وفارقته الحياة.. لقد أنقذته.. لقد نجا.. وبعين الأم أخذت أتأمل ذلك المراهق النائم، الذي رددت إليه حياته، وعانيت في سبيل ذلك آلامًا تفوق تلك التي عانيتها وأنا أضع ولدي عند مولدهما.. وفي تلك الغرفة القذرة ذات الأثاث القديم.. وفي ذلك الفندق الزري الذي تباح فيه الخلوات الدنسة، شعرت نفسي بنفس الشعور الذي يداخلني وأنا في الكنيسة وهو أمر خليق بأن يثير سخريتك، ولكنني أحسست في الواقع بتلك الغبطة التي يبعثها اكتمال معجزة خارقة. أحسست بالطهر والقداسة.

وتولدت من أفظع لحظة عشتها في حياتي ، لحظة أخرى صنو لها.. لحظة هي أعجب اللحظات وأشدها وقعًا على نفسي.. ولست أدري، هل بدرت مني ضجة ما كان ينبغي أن لا أحدثها، أو أنني

تكلمت دون أن أعي أو أفطن.. إذ فتح النائم عينه فجأة، فجزعت، وتراجعت مأخوذة.. أما هو فأخذ يتلفت حوله في دهشة، تمامًا كما فعلت أنا من قبل، ولاح كمن يخرج بعناء من هوة عميقة هائلة... وجاس ببصره في الغرفة الغريبة – في جهد غير بسيط – ثم استقرت نظراته عليّ في دهشة بالغة.. وقبل أن يتمكن من الكلام أو من استجماع شتات ذهنه، كنت قد استعدت رباطة جأشي.. وما كان ينبغي أن أدع له فرصة لينطق بكلمة واحدة.. أو ليوجه أي سؤال، أو يبدي أية ألفة.. إذ يجب أن لا يستعاد شيء من أحداث الأمس، أو يذكر شيء عن تلك الليلة.. لا إيضاح ولا مناقشة!.

وقلت له: "يجب أن أنصرف أما أنت فلتبق هنا.. ارتد ثيابك وسأنتظرك عند الظهر أمام الكازينو، حيث أدبر لك كل شيء.."

وقبل أن ينبس بكلمة واحدة، كنت قد لذت بالفرار، حتى لا أرى تلك الغرفة لحظة أخرى، واندفعت مغادرة ذلك النزل الذي لم أعرف اسمه، ولا اسم الغريب الذي قضيت معه ليلة بين جدرانه.

الفصل الخامس

توقفت مدام "س" عن متابعة قصتها هنية، لتسترد أنفاسها، فلما عاودت الحديث، لم يكن ثمة أثر للألم أو الانفعال في صوتها.. كانت كالعربة فالتي صعد منحدرًا، فتبذل في صعودها جهدًا مضنيًا.. ولكن ما إن تصل إلى القمة حتى تأخذ في هبوط الجانب الآخر من المنحدر، وعجلاتها تدور مندفعة في سهولة وسرعة.. الآن أصبح لها جناحان تحلق بهما في آفاق قصتها.. ومن ثم استأنفت الرواية متخففة مما كانت تعاني من انفعال:

هكذا عدوت إلى فندقي، مجتازة الشوارع التي غمرها نور الصباح بعد أن طردت العاصفة جميع الغيوم التي كانت متجمعة في السماء، كما انقشعت جميع بواعث الألم عن نفسي.. ولا تنس ما سبق أن قصصته عليك من أنني – منذ وفاة زوجي – أصبحت زاهدة في الحياة كل الزهد.. فإن ولدي لم يكونا بحاجة إليّ، ولم يكن هناك ثمة ما يعنيني أو يثير اهتمامي.. وكل حياة لا ترمي إلى هدف معين تصبح لغوًا باطلًا .. ومن ثم فقد وجدت نفسي للمرة الأولى، وعلى غير استعداد منوطة برسالة: لقد أنقذت رجلًا وانتزعته من براثن الفناء، باذلة في سبيل ذلك كل قواي.. ولم يبق إلا أن أتغلب على صعوبة هينة باقية، كي تكتمل رسالتي..

وحين بلغت الفندق، حملق حارس الباب في مشدوها، وهو يراني أعود إلى الفندق في الساعة التاسعة صباحًا.. ولكن نظراته لم تثر في نفسي حرجًا، إذ لم تكن قد تبقت في أعماقي رواسب من الحزن والأسى اللذين خالجاني في البداية، وإنما شعرت ببعث مفاجئ يحبب إليّ الحياة.. أحسست لوجودي بفائدة، فبعث هذا الإحساس الجديد الدم حارًا متدفقًا في عروقي.. وما إن بلغت غرفتي، حتى بادرت إلى تغيير ثوب الحداد واستبدلت به ثوبًا أزهى. وسعيت مسرعة إلى المحطة لأستفسر عن مواعيد سفر القطارات.. فعلت ذلك في حزم أدهشني من نفسي ، ثم عمدت إلى إنجاز بعض الأعمال، وإلى الوفاء ببعض مواعيد، ولم يتبق سوى أن أستوثق من أن ذلك الرجل الذي ألقى به القدر إليّ، قد نجا نهائيا من الخطر المحدق به وعاد إلى بلاده.

وكنت بحاجة إلى شجاعة كي أستطيع الاقتراب منه.. فإن كل ما وقع في الليلة السابقة، تم في الظلام.. كنت كحجرين ألقي بهما في دوامة، فاصطدما معًا في أثناء سقوطهما! لم يكن أحد منا ليعرف وجه الآخر تقريبًا... بل إنني لم أكن واثقة من أن ذلك الأجنبي سيتمكن من معرفتي، فإن ما حدث أمس كان محض مصادفة.. نشوة عابرة. نزوة شيطانية استبدت بمخلوقين مشردين.. أما اليوم،

فقد كنت مضطرة لأن أظهر أمامه في مظهر أوضح، إذ كنت مكرهة على الدنو منه، ومن ثم فسوف يرى وجهي في ضوء النهار الذي لا يشفق ولا يستر .

على أن الأمر تم بسهولة تفوق ما كنت أظن، فما إن دنوت من الكازينو في الساعة المتفق عليها، حتى رأيت شابًا ينهض عن مقعد، ويعدو نحوي.. وكان الشعور الذي اعتراه إذ فوجئ برؤيتي.. والحركات التي صدرت عنه عفوًا، تصطبغ بصبغة صبيانية، ساذجة، سعيدة، معبرة .. وأقبل نحوي وكأنه يوشك أن يطير، وفي عينيه وميض ينم عن اغتباط.. وعرفان بالجميل واحترام.. في آن واحد.. وما إن تطلع إلى فرأى في عيني ذلك الاضطراب الذي اعتراني إذا واجهته، حتى أطرق إلى الأرض في وداعة.. آه.. عرفان الصنيع.. ما أندر ما نراه في الرجال.. إن أكثر الناس تقديرًا للجميل لا يوفقون إلى التعبير عنه كما ينبغي.. فهم يصمتون، ويرتج عليهم القول، ويحسون بالخجل، ويتولاهم رد فعل ينتج عنه ذلك الارتباك الذي يدفعهم إلى إخفاء حقيقة مشاعرهم.. أما هنا، ولدى هذا المخلوق الذي أضفى عليه الله – المثال الأعظم – جميع الحركات التي تعبر عن مشاعره أدق وأجمل وأرشق تعبير، فإن عرفانه بالصنيع كان ينبعث دافقًا، وضاء، من كل ذرة في كيانه.

ومال على يدي، وانحنى خاشعًا برأسه الصغير الذي يشبه رأس طفل، وأخذ يلثم أصابع يدي ويلمسها بشفتيه لمسًا رقيقًا لدقيقة كاملة.. ثم تراجع وسألني عن صحتي وهو ينظر إليّ في حنان، وقد تجلى الأدب في كل كلمة من كلماته، فلم تنقض بضع دقائق حتى زال عني كل إحساس بالقلق أو الخوف، وكأنما انعكست حالتي المعنوية المبتهجة على الطبيعة المحيطة بنا، فخلعت عليها إشراقًا، وسناءً، وهدوءًا.. فإذا البحر الذي كان في الليلة الماضية ثائرًا قد غدا ساكنًا صافيًا حتى لقد كان بوسعنا أن نرى من مكاننا كل حجر تحت المياه الضحلة عند الشاطئ.. أما "الكازينو" فقد علا شاهقًا نحو السماء الصافية الزرقاء.. واستحال "الكشك" الذي احتمينا بمظلته من المطر المتدفق، وكل منا ملتصق بالآخر إلى متجر زاخر بكميات كبيرة من الأزهار.. تناثرت هنا وهناك دون ما ترتيب.. كما كان يضم طاقات كبيرة من الورد والأغصان الخضراء، وقد تولت البيع فتاة صغيرة في مرولة زاهية اللون..

ودعوت الشاب الغريب إلى الغداء في مطعم صغير، وهناك روى لي قصة مغامرته المفجعة، فكانت بمنزلة تأكيد لما ساورني نحوه حين رأيته يجلس إلى المائدة الخضراء، ويداه ترتعشان وتتضطربان في انفعال قوي..

كان ينتمي إلى أسرة عريقة المحتد، في بولندا النمسوية، ويتأهب للانخراط في السلك السياسي بعد أن أنهى دراسته في (فيينا) بتفوق منقطع النظير، إذ كان الأول في امتحاناته التي اجتازها في الشهر الماضي.. وكان يقيم عند عم له كان ضابطًا من ضباط القيادة.. وقد رأى عمه أن يحتفل بنجاحه فاصطحبه في عربة إلى حديقة الملاهي، وساحة سباق الخيل، وحالف الحظ عمه في المراهنة على الجياد، فكسب ثلاث مرات متوالية.. وتسلم الاثنان حزمة كبيرة من أوراق النقد التي ربحها العم، ثم تناولا عشاءهما في مطعم فخم..

وأرسل إليه أبوه – في اليوم التالي – مكافأة جزاء نجاحه.. مبلغًا من المال يوازي مرتب شهر للدبلوماسي المرتقب! وكان هذا المبلغ يبدو له – منذ يومين فقط – ثروة ضخمة.. أما بعد السهولة التي رآها في الربح عن طريق المقامرة، فقد بدا المبلغ تافهًا، ضئيلًا.. لذلك لم يكد يفرغ من الغداء في اليوم التالي حتى توجه إلى ميدان السباق، واندفع يراهن في ساحة السباق بعد الشوط الأخير، وقد ربح ثلاثة أضعاف ما كان معه.

ومنذ ذلك اليوم استبد به سعار المقامرة، تارة في سباق الخيل، وأخرى في المقاهي، واستولى على وقته، ودراساته، وأعصابه، وموارده.. فغدا عاجزًا عن التفكير المطمئن والنوم الهادئ.. كما

أصبح أكثر عجزًا عن كبح جماح نفسه.. حتى لقد حدث أن عاد ذات ليلة إلى بيته بعد أن فقد كل ما كان يملك، في أحد المنتديات.. وفيما كان يخلع ثيابه، عثر على ورقة مالية مجعدة، منسية في أحد جيوب صديريه، فلم يقو على مقاومة نزوته، ومن ثم عاد يرتدي ثيابه من جديد، وانطلق يجوس خلال الشوارع، ذات اليمين وذات اليسار، حتى عثر في أحد المقاهي على لاعب عابر من لاعبي الدومينو، ظل يلاعبه حتى مطلع الفجر .

وتطوعت أخته المتزوجه بمساعدته، فدفعت عنه الديون التي تراكمت عليه للمرابين، وحالفه الحظ قليلًا، ولكن النحس لم يلبث أن لازمه.. وكان كلما ازدادت خسائره وعجز عن سدادها تورط في تعهدات لا سبيل له إلى الوفاء بها، ووعود لا حيلة له في البر بها، فلم يزده هذا إلا جريًا وراء كسب كبير ينقذ به الموقف.. وكان قد رهن ساعته وملابسه منذ وقت طويل فانتهى به الأمر إلى الإقدام على عمل منكر، إذ سرق من زوجة عمه زرين كبيرين مرصعين بالأحجار الكريمة، كانت تحتفظ بهما في خزانتها، ولا تستخدمهما في زينتها إلا نادرًا.. ورهن أحدهما لقاء مبلغ ضخم لعب به، فربح أربعة أمثاله في نفس الليلة.. وبدلا من أن ينسحب من اللعب قانعًا، أقدم على المجازفة بكل ما ربح.. فخسر..

ولم تكن السرقة قد اكتشفت بعد، حين اعتزم الرحيل، فرهن الثاني، ويمم لتوه شطر (مونت كارلو)، أملًا في أن يربح في "الروليت" الثروة التي كان يحلم بها!، ولكن الأمر انتهى به – هناك، وفي نفس يوم وصوله – إلى أن يبيع حقيبة ثيابه، وثيابه.. وأخيرًا مظلته! ولم يبق معه إلا مسدسه الذي كان يحتوي على أربع رصاصات، وصليب صغير مرصع بالأحجار الكريمة، كان هدية قدمتها له – عند تعميده – "اشبينته"، وهي أميرة (...)، وكان يحرص على هذا الصليب، لكنه ما لبث أن باعه بعد الظهر بخمسين فرنكًا، لا لغرض سوى أن يحاول – في الليلة ذاتها – أن يتذوق للمرة الأخيرة تلك اللذة الجامحة التي يستشعرها وهو يقامر.. وكان في هذه المرة يقامر على حياة.. أو موت!.

روى لي الشاب هذا وقد تركزت في كيانه فتنة أخاذة كانت تبعث حيوية في الكائنات.. وكنت أصغي إليه متأثرة مضطربة، مأخوذة بقصته المثيرة، إلا أنه لم يدر بخلدي لحظة واحدة أن وجودي على مائدة واحدة مع رجل – كان في الواقع لصًّا رغم جميع الاعتبارات – يعتبر أمرًا مخجلًا.. ولو أن إنسانًا ذكر لي في اليوم السابق – ولو عرضًا – أنني، وأنا السيدة التي لا غبار على ماضيها، والتي تتلقى من المجتمع احترامًا تقليديًّا كاملًا، قد أجلس يومًا في غير

كلفة إلى جوار شاب غريب عني تمامًا يكاد يعادل ابني في العمر، فضلا عن أنه سرق أحجارًا كريمة.. أقول .. لو حدث أن ذكر لي أحد أن هذا قد يصادفني، لاعتبرته مخبولًا يهذي!.

ومع ذلك فلم أشعر نحو الشاب – ولو للحظة واحدة – بنفور أو استنكار، وهو يروي لي قصته، فقد كان يسردها ببساطة وتدفق، حتى ليخيل لسامعه أن الفعلة التي ارتكبها إنما جاءت نتيجة إصابته بالحمى أكثر مما هي جريمة فاضحة،، ثم أن شخصًا مثلي، واجه في الليلة السابقة أحداثًا غير متوقعة تدفقت عليه كالشلال، كانت كلمة "مستحيل" قد فقدت في نظره – فجأة – معناها.. وقد كان ما مر بي خلال الساعات العشرين الأخيرة من اختبارات، في صميم حقائق الحياة، يفوق كثيرًا كل ما اكتسب في الأربعين عامًا التي قضيتها في حياة متحفظة!.

على أن شيئًا ما في اعترافاته أخافني.. شيئًا تمثل في هذا البريق المحموم الذي كان ينبعث من عينيه، التي تفض له جميع عضلات وجهه، كأن بها مسًّا كهربائيًّا! وكان مجرد السرد كافيًّا لاستثارته – كلما تحدث عن تعلقه باللعب – فإذا ملامح وجهه تفصح، في وضوح فظيع، عن الفرح والألم اللذين كانا يتعاقبان في أطواء نفسه.. وكانت يداه اليدان البديعتان، العصبيتان، الرشيقتا الحركة تتحولان

خلال ذلك وعلى الرغم منه إلى مخلوقين وحشيين، مجنونيين.. تمامًا كما كانتا تبدوان على مائدة اللعب، وكنت أرقبهما خلال انهماكه في رواية القصة وهما ترتجفان فجأة، وتلتويان، وتتقلصان في انقباض يعقبه انبساط،.. وفي اللحظة التي اعترف فيها بسرقة الزرين، أخذت يداه تتحركان بشكل جعلني أنتفض جزعًا، إذ راحتا تقلدان وفي حركات وثابة، سريعة حركات اللصوص، حتى لقد رأيت أمامي كيف اندفعت أصابعه في جشع جنوني نحو الحلية ووارتها بقوة في قبضة اليد .. وعرفت – وقد استحوذ عليّ فزع غامض – أن انفعالات ذلك الرجل كانت تسري في كل قطرة من دمه مسرى السم الزعاف.. وكان أشد ما استثارني وأفزعني – في قصته – هو أن تكون لدى هذا الشاب الصافي النفس، المرح، مثل هذه النزعة الجنونية.

وشعرت بأن أول واجب علي، هو أن أقنع ذلك الشاب الذي ألقته المصادفات في حمايتي، بأن يغادر مونت كارلو في الحال، لما فيها من إغراء شديد الخطورة.. كان لابد من أن يسافر في نفس اليوم عائدًا إلى أسرته، قبل أن تكتشف السرقة ويتهدم مستقبله، ووعدته بأن أمده بالمال اللازم لرحلته، ولتخليص الحليتين من الرهن، على شريطة أن يغادر المدينة في اليوم ذاته، وأن يقسم بشرفه أن لا

يمس بعد اليوم ورقة من أوراق اللعب، ولا أن يشترك بعد اليوم في لعبة من ألعاب الميسر.

ولن أنسى ما حييت اعترافه بجميلي.. هذا الاعتراف الذي بدأ هادئًا، ثم أخذ يذكو شيئًا فشيئًا، في نفس ذلك الرجل المضيع.. لن أنسى قط الطريقة التي كان يتلقف بها كلامي وأنا أعده بالمساعدة.. فقد مد يديه فجأة إلى المائدة ليمسك بيدي، في حركة ستبقى دومًا محفورة في نفسي .. حركة تنم عن عبادة وتقديس لشخصي!. وترقرقت الدموع في عينيه الصافيتين اللتين كانتا حتى ذاك الوقت شاردتين.. واستولت على جسده رعدة عصبية من الانفعال والسعادة..

ولقد حاولت عدة مرات أن أصف لك التعبير المنقطع النظير الذي تجلى على وجهه وتصرفاته.. ولكن ليس في مقدوري أن أرسم لك صورة حقيقة لتلك الحركة التي صدرت منه، والتي كانت تنم عن سعادة مومضة في بريق يخطف البصر.. سعادة لا يرى الإنسان لها مثيلًا.. سعادة لا تقارن إلا بذلك الطيف الأبيض الذي يخيل للحالم أنه لمحه في نهاية حلم رأى نفسه فيه أمام وجه ملاك يتوارى.. ولكن، لماذا أخفي الحقيقة؟ إنني لم أستطع مقاومة ما في ذلك المنظر من روعة.. إن العرفان بالجميل يبعث على السعادة، فهو تعبير يندر

رؤيته متجسمًا.. والرقة تملأ النفس إشراقًا.. وقد كان مثل هذا الشعور – بالنسبة لي، أنا الرزينة، الرصينة – شيئًا جديدًا، عذبًا، يبعث في النفس راحة.. وتراءت لي الطبيعة – بعد مطر أمس الدافق – وكأن يدًا سحرية قد فتحت أكمامها، كما تفتحت لي نفس ذاك الشاب الذي كان في اليوم السابق مرتجفًا، مهدمًا.

وحين غادرنا المطعم، كان البحر هادئًا يتالق في روعة، وقد صبغته زرقة اتصلت عن أطرافه الشاسعة بزرقة السماء، لا يشوبها سوى نقط سوداء تمثل الطيور المحلقة في عنان السماء.. ولعلك تعرف روعة مناظر الطبيعة في الريفيرا.. إنها دائمًا تملأ النفس شعورًا بالجمال، ولكنه شعور غير مستساغ. إنها كالبطاقة المصورة، تبدو ألوانها الثقيلة للعين دائمًا، في ميوعة الحسناء التي غالبها النعاس.. فهي تستلقي خاملة، ويسودها في وحدتها المدللة طابع شرقي مثير.

على أن الحرارة قد تدب في هذا الجمال الذي كشف بجلاء وقوة عن ألوانه الزاهية البراقة، فلا تشعر إلا وهو يسكب في أحاسيسك بهاءه المنمق.

وكان ذلك اليوم من الأيام المفعمة بالأحاسيس المرهفة، كما يحدث عادة عقب القلق الطاغي الذي يستولى على المرء في ليلة عاصفة! وكان الشارع الذي غسلته مياه الأمطار يلمع في بهاء، وقد

اصطبغت السماء بأرجوانية الشفق.. وحيثما قلبت الطرف في الطبيعة الخضراء، المنداة بالمطر، رأيت طاقات من الورد الزاهي ذي الألوان المشرقة.. وتبدت الجبال أكثر وضوحًا، وقد زادها الجو الصافي السابح في آشعة الشمس اقترابًا، فكأنها تجمعت وتقدمت قدر المستطاع من المدينة البهيجة.. كانت الطبيعة تفرض عليك، مع كل نظرة، مزيدًا من إغرائها المثير، فتستحوذ على قلبك، رغما عنك.

وقلت للشاب: "لنستقل عربة تنطلق بنا في نزهة على الكورنيش".

فأومأ الشاب برأسه، وقد بدا أن جمال الطبيعة استغرقه،، فما كان قد رأى – منذ وصوله – سوى قاعة اللعب في الكازينو.. تلك القاعة ذات الجو الثقيل، المشحون، الذي تخالطه رائحة العرق، والتي تشيع فيها ضوضاء أولئك الآدميين ذوي الوجوه العابسة، المكفهرة.. لم يكن قد رأى منذ وصوله سوى تلك القاعة، وذلك البحر القاتم، العكر، الثائر، الذي تراءى له بالأمس.. أما الآن، فقد كان يترامى أمامنا الشاطئ الطويل المنبسط، الغارق في آشعة الشمس.. وكانت العين تنتقل من أفق إلى أفق، في ابتهاج وغبطة..

وانطلقت بنا العربة البطيئة في الطريق البديع، مارة بعدد كبير

من الفيلات، وبجماعات زاخرة من الناس.. وكلما مررنا ببيت أو فيلا مستلقية في أحضان الظلال الوارفة – شعرنا، مائة مرة، بتلك الرغبة الخفية التي توقظها هذه المناظر في النفس.. ألا ما أجمل الحياة هناك.. في دعة، ورضى، ونأي عن الناس.

أفكانت هناك سعادة تفوق سعادتي في تلك الساعة؟ كان إلى جواري – في العربة – شاب، كانت مخالب القدر والموت مطبقة عليه بالأمس، فأصبح اليوم محوطًا بهالات من آشعة الشمس الساطعة، وبدا كأنه استرد من عمره بضع سنوات، أو كأنه ارتد صبيًّا جميلًا يلعب، وتفيض عيناه بوميض متألق، وباحترام مهذب في وقت واحد! لم أشعر قط بمثل تلك السعادة التي داخلتني وهو يضفي على احترامه الفياض.. وكنت لا أكاد أنطق باسم زهرة او أشير بيدى إلى وردة – في الطريق – حتى يبادر باقتطافها وتقديمها لي.. ووقع بصره على ضفدع صغير، طوحت به الأنواء في الليلة السالفة وسط الحشائش الخضراء، فتناولته بحذر ونحاه عن طريق العربة حتى لا تسحقه.. وهو – في هذه الأثناء – يروي لي أقاصيص مسلية، وطريفة، في لباقة بارعة.

وخيل إلى أن ضحكته كانت وسيلة يشغل بها نفسه عن تصرفات أخرى، إذ كان في بعض الأوقات يغني أو أن يقفز أو أن

يقدم على تصرف أحمق يثير الضحك.. وكانت تصرفاته الفجائية هذه تطفح بالسعادة.

وبينما كانت العربة تجتاز بنا مرتفعًا صغيرًا، إذا به يرفع قبعته فجأة، فدهشت.. ترى من الذي خصه بالتحية وهو غريب وسط أغراب؟ وإذ سألته تضرجت وجنتاه، وقال – وكأنه يعتذر عن تصرفه – إننا قد مررنا في طريقنا بكنيسة، وإن القوم في بولندا درجوا – كما درجت كل البلاد المتمسكة بالمذهب الكاثوليكي – على رفع القبعات عن الؤوس أمام الكنائس والمعابد.. وهزني هذا الاحترام النقي الذي أبداه إزاء الأماكن المقدسة، وتذكرت ذلك الصليب الذي حدثني عنه، فسألته عما إذ كان مؤمنًا.. وإذ ذاك سرت في وجهه حمرة خفيفة، واعترف لي في شيء من الخجل بأنه يتمنى أن يتناول القربان المقدس، فصحت في الحوذي "قف".. وأسرعت إلى مغادرة العربة.. فتبعني في دهشة، وهو يقول: "إلى أين سنذهب؟ "فأجبت في اقتضاب "تعال معي".

واتجهت به صوب الكنيسة.. كانت من معابد الريف الصغيرة، وقد شيدت من الطوب، وطليت جدرانها الداخلية بالجير، فبدت قاتمة.. وكان الباب مفتوحًا، ينساب منه شعاع مخروطي الشكل، أصفر اللون، يشق الظلام ويحيط المذبح الصغير بهالة زرقاء.. وكانت

ثمة شمعتان ترسلان نورًا باهتًا خلال تلك العتمة المشبعة بعبير البخور المحترق..

ودخلنا، فرفع قبعته، وغمس يده في وعاء الماء المقدس، ورسم إشارة الصليب، وثنى ركبته.. وما إن انتصب معتدلًا حتى أمسكت بذراعه، وقلت له في حزم: تقدم إلى المذبح أو إلى أية صورة من هذه الصور المقدسة، وردد خلفي هذا القسم الذي سأتلوه عليك.. فتطلع إليّ في ذهول مشوب بشيء من الرهبة! ولكنه لم يكد يدرك مقصدي حتى دنا من فجوة قام فيها تمثال، فرسم إشارة الصليب، وركع في خشوع،، وإذ ذاك قلت وأنا أرتجف لفرط التأثر: "ردد بعدي ما سوف أقول.. أقسم، فقال "أقسم! فمضيت: "أني لن أشترك مطلقًا في أية لعبة من ألعاب القمار، أيًّا كان نوعها، ولن أعرض حياتي وشرفي لأخطار هذه النزوة.."!.

فكرر أقوالي وهو ينتفض.. كررها بصوت واضح دوى صداه في الفراغ الواسع المحيط بنا، وأعقبت ذلك لحظة خيم فيها على المكان صمت شامل، حتى لقد كنا نسمع حفيف الأشجار التي كان الهواء يداعب أوراقها في الخارج.. وفجأة، انحنى خاشعًا كأنه مذنب أثقلته الخطيئة، وانطلق – في نوبة من التقوى العميقة لم أعهدها منه – ينطق بكلمات سريعة متماسكة، باللغة البولندية التي لم أكن

أعرفها.. ولعلها كانت صلاة حارة.. صلاة شكر وندم، إذ كان في أثناء التمتمة يحني رأسه في ورع على حاجز الهيكل، وهو يردد الكلمات الغربية بحرارة.. ولاحظت بينها كلمة معينة، تتكرر باستمرار، وفي حماسة غريبة.. ما سمعت يومًا من قبل صلاة تتلى في أية كنيسة من كنائس العالم بمثل هذا الورع.. كانت يداه تتشبثان بالحاجز الخشبي للهيكل في قوة، وجسده ينتفض، كما لو كانت في أعماقه عاصفة هوجاء، أخذت تدفعه إلى الوقوف فجأة، ثم لا تلبث أن ترده إلى ركوعه، في استغراق عميق، لم يعد يرى أو يسمع شيئًا خلاله، كأنما كانت كل جارحة في نفسه قد غابت في عالم آخر.. في مظهر أو كأنما صعد كل حس فيه إلى ملكوت من القداسة بقفزة واحدة.

وما لبث أن نهض متباطئًا – في النهاية – فرسم إشارة الصليب مرة أخرى، وتلفت حوله بعناء، وقد ارتجفت ركبتاه وشحب وجهه كإنسان استنزفت كل قواه عن آخرها.. ولكن ما إن وقع بصره عليّ، حتى أومضت عيناه، وارتسمت على وجهه المنحني ابتسامة صافية أضاءت أساريره، ثم انحنى أمامي انحناءة كبيرة على الطريقة السلافية، وتناول يدي باحترام فلثمها بأطراف شفتيه في توقير، وقال لقد أرسلك الله إليّ ولهذا شكرته على صنيعه.

ولم أدر ماذا أقول، ولكني تمنيت إذ ذاك لو أن الأرغن أرسل أنغامه فجأة من أعلى الشرفة الصغيرة، إذ أيقنت بأنني أفلحت في كل شيء.. وأنقذت هذا الرجل إلى الأبد..

وبارحنا الكنيسة لنعود إلى النور المشرق الزاهي، الذي امتاز به ذلك اليوم من أيام شهر مايو، ما رأيت العالم من قبل في مثل هذا الجمال .. وظللنا ساعتين والعربة تخطر بنا على مهل، حتى بلغنا قمة الجبل، حيث كان الطريق الممهد يتيح لنا في كل منعطف منظرًا جديدًا، ولكننا لم ننبس ببنت شفة.. فإن كل قول كان خليقًا بأن يبدو ركيكًا وفارغًا، بعد ذلك الخشوع الذي ملك المشاعر.. وكنت أجدني مضطرة إلى أن أشيح بوجهي في ارتباك، إذا التقى بصره ببصري، كان شعورى أقوى مما أتحمل، وعدنا إلى مونت كارلو في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر.. وكنت على موعد لا سبيل للتخلف عنه مع بعض الأقارب.. والحق أني كنت أصبو إلى فترة من الهدوء، أتخفف فيها من عواطفي التي طغت في تلك اللحظات.. فقد كانت سعادتي أكثر مما أحتمل.. ومن ثم أحسست بأنني في حاجة إلى أن أنفس بعض النشوة والانفعال البالغين اللذين استحوذا على كياني بقوة لم أعرف لها في حياتي مثيلًا.. لذلك طلبت من الشاب الذي أحطته برعايتي أن يصحبنى إلى الفندق لبرهة وجيزة، وفي حجرتي

أعطيته المبلغ اللازم لنفقات رحلته، ولتخليص الحلية المسروقة من الرهن، واتفقنا على أن يتجه إلى المحطة، فيبتاع تذكرة السفر، بينما أفي بالموعد الذي كنت مرتبطة به، ثم نعود فنلتقي في الساعة السابعة مساء، لنقضي في المحطة نصف الساعة السابقة على موعد تحرك القطار الذي ينقله إلى وطنه، عن طريق جنوا، ولكن حين أردت أن أقدم له الورقات المالية الخمس، اكتست شفتاه بصفرة غريبة، وهتف: لا لا نقود .. ونطق بهذه العبارة متلعثمًا، بينما كانت أصابعه المرتعشة، ترتد إلى الوراء بانفعال واضطراب، وهو يكرر لا لا نقود.. لا أستطيع أو أرى نقودًا".

وأخذ يردد هذه العبارة وقد بدا كأن الخوف والاشمئزاز قد استوليا عليه تمامًا.. غير أنني هدأت من روعه قائلة إن هذا لم يكن أكثر من قرض، وإن بوسعه أن يكتب لي إيصالًا بالمبلغ، إذا كان يحس بالحرج فقال: "نعم.. إيصال". تمتم هذه العبارة وهو يشيح ببصره عني، ثم فرك أوراق النقد كأنها شيء لزج تتسخ منه لمسة أصابعه، ودسها في جيبه دون أن ينظر إليها.. ثم كتب على قصاصة من الورق بضع كلمات بخط متعجل.. وعندما رفع رأسه، كان جبينه مندى بعرق كثيف، كما لو كانت نفسه مسرحًا لشعور يكافح للانطلاق.. وما إن تناولت الورقة منه، حتى استولت على كيانه

رجفة، ثم جثا فجأة – وإذ ذاك تراجعت مذعورة على الرغم مني – فقبل طرف ثوبي.. كانت حركة تجل عن الوصف، وبعث انفعاله المنقطع النظير رعشة أخذت تنتقل في أوصالى، ثم استبدت بجسمي قشعريرة غريبة، وتملكني الاضطراب، فلم أملك سوى ان أتمتم بهذه الكلمات: "أشكر لك صنيعك.. ولكن عفوًا.. لنفترق الآن.. ولنلتق في الساعة السابعة مساء في فناء المحطة لنتبادل الوداع".

ورمقني وفي عينيه بريق حنون، فظننت أنه يريد أن يقول شيئًا.. وخيل إليّ أنه يريد الاقتراب مني، ولكنه انحنى فجاة انحناءة كبيرة.. كبيرة جدًا.. وغادر المكان".

الفصل السادس

توقفت مسز "س" مرة أخرى عن متابعة قصتها، قامت إلى النافذة، مرسلة ناظريها إلى الخارج.. وبقيت في وقفتها فترة طويلة بلا حراك، ثم اعترتها رجفة وهي توليني ظهرها.. وفجأة، عادت، ثم نظرت إليّ بحدة وجرأة وهي تعاود الحديث قائلة:

"لقد وعدتك بأن أكون في غاية الصراحة.. ولكم تبينت الآن أن هذا الوعد كان ضروريًا، لأنني أدرك الآن وأنا أكافح نفسي لأصف لك، تلك الساعة بتسلسل منتظم.. وأنا أبحث عن الكلمات الدقيقة التي أعبر بها عن شعور كان حتى ذاك الوقت منطويًا في نفسي أدرك الآن أمورًا كثيرة لم أكن أدركها.. لهذا كله أقول لك ولنفسي أيضًا الحقيقة، ففي تلك الساعة التي غادر الشاب فيها غرفتي وتركني وحدي، شعرت بضربة قوية تصيب قلبي.. كأنما طعنني شيء ما، ولم أدر كيف كانت التصرفات المشبعة بالود والاحترام التي أبداها الشاب نحوي طعنة أصابتني في الصميم.. على أنني اليوم، وأنا أجاهد لأنتزع أحداث الماضي من قرارة نفسي في نظام وعزم، كما لو كان هذا الماضي غريبًا عني.. اليوم، وقد أصبح من المتعذر – بعد حضورك إلى هنا – ان أخفي الحقائق، أو

أن التمس عذرًا لتبرير عاطفة مخزية.. اليوم، أراني أدرك باعث ذلك الألم.. في وضوح تام.. كان مبعث ألمي إذ ذاك هو: خيبة الأمل.. الخيبة التي اعترتني وأنا أرى ذلك الشاب ينصرف في هدوء وانصياع، دون أية محاولة للاحتفاظ بي، أو البقاء معي.. أن أراه يطيع – في استكانة وتوقير – أول طلب أناشده به أن يرحل.. بدلًا من أن.. يحول اجتذابي إليه بقوة .. أن أراه يجلني ويوقرني كقديسة ظهرت له في طريقه.. وأن أتبين أنه لم يشعر بوجودي كامرأة.

كان هذا مخيبًا لأملي خيبة لم أجهر بها لنفسي إذ ذاك، ولا فيما بعد، ولكنني شعرت بها.. فإن شعور المرأة يلم بكل شيء دون إفصاح، ودون وعي لحقيقته تمامًا.. أما الآن، فلم أعد عاجزة عن فهم نفسي: لو أن ذلك الرجل تشبث بي وسألني ان أتبعه، لذهبت معه إلى آخر أطراف العالم، كنت أهرب معه كما هربت "هنريت" هذه مع الشاب الفرنسي الذي لم تكن تعرفه حتى مساء الليلة السابقة على هربهما.. ما كنت إذ ذاك لأسأله إلى أين أذهب، ولا إلى متى أبقى.. ما كنت لألقي نظرة واحدة إلى الوراء.. إلى حياتي الماضية، وإنما كنت أضحي لهذا الرجل بمالي، واسمي، وثروتي، وشرفي.. بل كنت أستجدي من أجله، ولا أتعفف عن أخس دناءة في العالم يدفعني إلى ارتكابها.. كنت أضرب عرض الحائط بكل ما يسميه الرجال عفافًا ووقارًا.

كنت على استعداد لأن أفعل كل هذا، لو أنه نطق بكلمة واحدة، أو خطا خطوة واحدة، أو حاول أن يأخذني معه.. فقد كنت في تلك اللحظة فاقدة العقل، متعلقة به بكل ما في كياني.. ولكن، وكما قلت لك، لم يلق هذا المخلوق العجيب نظرة واحدة عليّ.. على المرأة الكامنة في داخلي! لكم كنت أتحرق شوقًا إلى أن أفرط في نفسي، وأن أفرط في نفسي إلى أقصى حد .. على أنني لم أشعر بهذا إلا حين خلوت إلى نفسي، بعد لحظة واحدة من ذلك الموقف الذي كان وجهه الملائكي يتألق خلاله بما كان يسري في نفسه من انفعالات.. واستولى هذا الشعور على نفسي .. بل انقض على كياني، وراح ينبض في فضاء القلب المهجور..

ونهضت بعناء.. وكنت على موعد بدا لي في تلك اللحظة بغيضًا.. وخيل إليّ أن خوذة حديدية ثقيلة قد هبطت على رأسي، وراحت تضغط على جبيني بكل ثقلها، حتى كدت أترنح.. كانت أفكاري مشتتة متخاذلة.. تمامًا كخطواتي حين يممت أخيرًا صوب الفندق الذي ينزل فيه أقاربي.. وهناك جلست مكتئبة وسط أناس يتجاذبون أطراف الحديث في مرح.. كنت أشعر بجزع كلما رفعت عيني عفوًا إلى تلك الوجوه الجامدة، التي كانت تبدو أمامي كما لو كانت ملفوفة بالأقنعة، إذا ما قورنت بوجه ذلك الشاب الموفور

الحرارة.. كان طيفه ومرآي تلك الوجوه أضواء وظلالًا تتناوب الظهور والاختفاء في تعاقب، وقد اكتنفتها الغيوم.. لكم خيل إليّ أنني وسط أموات، وأن تلك الجماعة من الناس كانت مجردة من الحياة..

وفيما كنت أضع السكر في القدح، وأنطق ببضع كلمات بذهن شارد كان ذلك الوجه – الذي أصبح التأمل فيه مبعث فرحي جامح لورحي – يطفو من أغوار نفسي ، كأنه مسوق بدفعة قوية من دمي المشتعل .. هذا الوجه الذي – ويا لهول الفكرة – سوف أراه للمرة الأخيرة بعد ساعة أو اثنتين .. ولابد أن زفرة واهنة، أو أنها خافتة، انطلقت من صدري على الرغم مني، إذ اقتربت مني ابنة عم زوجي فجأة، وسألتني إن كنت مريضة أو أستشعر تعبًا، لا سيما وقد رأتني شاحبة، قلقة، إلى حد بعيد.. وبادرت أنا إلى استغلال فرصة هذا السؤال، لأزعم أني أعاني من صداع شديد، ومن ثم استأذنت في الانصراف، دون أن أشعر أحدًا بما كان بي.. وما إن نهضت حتى أسرعت عائدة إلى الفندق، ولذت بحجرتي لأخلو بنفسي، وعلى الفور شعرت بالفراغ والوحدة، وأحسست بالرغبة في الوجود على مقربة من ذلك الشاب – الذي سأتركه اليوم إلى الأبد – تطبق عليّ بقسوة رهيبة! وأخذت أذرع الحجرة، وأفتح الأدراج بدون ما سبب

لذلك.. وأغير ثيابي، وأبدل الأشرطة التي تزينها، كي أبرر وقوفي أمام المرآة، وأنا أسائل نفسي – إذ أرقبها بعين فاحصة – عما إذا كنت أعجز حقًّا، وأنا في هذه الزينة، عن اجتذاب انتباه ذلك الشاب؟.

وفجأة، فطنت إلى حقيقة نفسي.. كنت مستعدة لأن أقدم على كل شيء حتى لا أحرم من ذلك الشاب! وفي لحظة واحدة، أفعمت بفورة عارمة.. واستحالت الرغبة التي كانت تعتمل في نفسي إلى عزم وإصرار.. وعلى الفور.. أسرعت باحثة عن حارس الفندق، وأعلنته بعزمي على السفر في ذلك اليوم بقطار المساء.. أصبح لابد من عمل سريع.. ودققت الجرس لأستدعي الخادم كي تساعدني في إعداد حقائبي.. إذ كان الوقت ضيقًا.. وأسرعنا معًا في تكديس الحقائب بالملابس والحاجيات الصغيرة، وأنا أتمثل في خيالى المفاجأة المقبلة، والصورة التي ستتم عليها.. أتصور أنني حضرت متظاهرة بالرغبة في مرافقته إلى داخل القطار.. وهو يمد يده إليّ بتحية الوداع الأخيرة.. ثم الدهشة التي ستتولاه بعد ذلك عندما يراني وقد احتللت مكأني في عربة القطار فجأة.. لأتبعه وأظل معه تلك الليلة، والليلة التالية، وأي عدد من الليالي يروق له أن أقضيها معه .

وسرت في دمائي غبطة نشواته، حتى لقد انطلقت في قهقهة

عالية، وأنا أضع ثيابي في الحقائب، الأمر الذي أدهش الخادم. فلما جاء الحمال لينقل حقائبي، نظرت إليه في دهشة.. إذ كان من العسير عليّ أن أفكر في أشياء واقعية.. بينما كانت تطفح روحي بالغبطة الجامحة النشوانية.. وكان الوقت قد أزف.. إذ أشرفت الساعة على السابعة.. ولم يبق على تحرك القطار أكثر من أربعين دقيقة.. وكان عزائي الوحيد في هذه الفورة أنني كنت ذاهبة إلى وداع.. ما دمت قد عقدت العزم على مرافقته في سفره، والبقاء معه ما سمح لي بالبقاء.

وأخذ الحمال ينقل حقائبي، بينما أسرعت أنا إلى إدارة الفندق لأدفع ما كان عليّ من حساب.. وفي اللحظة التي أعاد فيها الرجل إليّ النقود وتأهبت للانصراف.. شعرت بيد تمسك كتفي برفق.. فقفزت جزعًا.. كانت ابنة عم زوجي قد شغلت بذلك التعب الذي زعمت أنه ألم بي حين كنت في زيارتها فجاءت تطمئن عليّ، وأظلمت الدنيا في عيني.. لم أدر ماذا أصنع إزاءها، كانت كل ثانية أمكثها معناها تأخير لا يمكن تداركه، ولكن الأدب اقتضاني أن أصغى إليها.. ولو لدقيقة واحدة.

أما هي فقد قالت في إصرار يجب أن تلزمي الفراش فأنت محمومة ما في ذلك شك.. وكان هذا جائزًا،، إذ كنت أشعر بنبض عنيف،

قاس في صدغي.. وكانت تطفو أمام عيني أحيانًا تلك الظلال الزرقاء المنذرة بقرب الإغماء.. وأخذت أعترض، وأتظاهر بالشكر والتقدير لنصحها، بينما كانت كل كلمة تكويني.. بل لقد وددت لو استطعت أن أركل بقدمي هذا النصح الذي جاء في وقت من أبعد الأوقات ملائمة.. ولكن قريبتي السخيفة بقيت وبقيت، وظلت أمامي باستمرار.. وقدمت إليّ ماء الكولونيا.. بل إنها حرصت على أن تتولى بنفسها ترطيب صدغي بهذا الماء، وأنا أعد الدقائق.. وقد اتجه فكري كله إلى ذلك الشاب، وبينما كنت أبحث عن حجة أتهرب بها من تلك الرعاية المضنية، أخذ قلقي يزداد.. فكان ارتيابها في أمري يتضاعف.. حتى لقد عنفت معي وهي تسعى لحملي على أن آوى إلى غرفتي، لألزم الفراش.

وكنت لا أكف خلال نصائحها عن التطلع إلى عقربي الساعة.. كان عقرب الدقائق يسعى حثيثًا إلى منتصف القرص.. كانت الساعة السابعة والدقيقة الثامنة والعشرين، بينما القطار يبرح المحطة في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين، وبحركة مباغتة، وفي عدم اكتراث لا يصدر إلا عن يائسة، مددت يدى إلى بنت عم زوجي قائلة دون ما إيضاح "وداعًا لابد لي من الرحيل".. وأسرعت صوب الباب غير حافلة بالدهشة التي رمقتني بها، بل دون أن التفت

إليها.. وبينما كان الخدم يحملقون في استغراب انطلقت أعدو في الشارع شطر المحطة.

وأدركت من الإشارات التي كان يستحثني بها الحمال عن بعد أن القطار على وشك التحرك، ومن ثم اندفعت في جنون أعمى نحو باب المحطة المفضي إلى الرصيف.. وإذا بمراقب الباب يستوقفني.. كنت قد نسيت أن أبتاع تذكرة.. وفيما كنت أحاول إقناعه في شيء من الحدة بأن يخلي سبيلي لأتمكن من اللحاق بالقطار، إذا بالقطار يتحرك.. وحملقت وكل فرائصي ترتجف آملة أن أحظى من إحدى النوافذ بنظرة أو إيماءة أو تحية على الأقل.. ولكن القطار لم يلبث أن ازداد سرعة.. فأصبح من العسير أن ألمح الوجه المنشود.. وتلاحقت عربات القطار في سرعة وإن هي إلا دقيقة.. حتى كان ما بقي ظاهرًا لعيني المعتمتين.. مجرد غمام داكن!.

وكان من الطبيعي أن أظل في وقفتي هذه جامدة كالتمثال.. ولا يعلم إلا الله كم بقيت على هذه الحال.. فقد حاول الحمال عبثًا أن يخاطبني، حتى اضطر إلى أن يمس ذراعي منبهًا لي فانتفضت مذعورة.. عندئذ سألني: هل يعيد الحقائب إلى الفندق.. واحتجت إلى بضع لحظات كي أستعيد رباطة جأشي، ورأيت أن عودتي إلى الفندق مستحيلة، بعد أن غادرته على تلك الصورة. لم يكن بوسعي

أن أعود إلى الفندق.. ولا كنت راغبة في العودة إليه.. وفي غمرة الارتباك الشديد الذي اعتراني، امرته بأن يودع الحقائب "قسم الأمانات"..

وظللت فترة في فناء المحطة وسط أناس لا تنقطع ضوضاؤهم يروحون ويجيئون متدافعين.. ثم أخد عددهم يقل رويدًا رويدًا، وإذ ذاك بدأت أستجمع شتات ذهني لأفكر بهدوء في الوسائل التي أتخفف بها من هذا السخط الجامح المؤلم، والأسى واليأس، الذي اجتاحني في إلحاح ممض.. فقد كنت – ولست أرى داعيًا لتجنب الحقيقة – أشعر بكيابي ممزق كله في قسوة أليمة لا ترحم، كلما فكرت في أن حرماني من ذلك اللقاء الرائع كان نتيجة خطأ مني.. كان ذنبي.. ولقد أوشكت أن أصرخ لفرط الألم الذي أحدثه هذا النصل الحاد، المشحوذ، وهو ينفذ إلى أعماقي.

ولا يعرف الثورات العاطفية المفاجئة – التي تحدث في لحظات استثنائية والتي تشبه انهيار جبال الثلج، أو هبوب العواصف الهوجاء – قط أولئك الذين لم يألفوا الانفعال.. ذلك لأن القوى العاطفية تندفع فجأة – في تلك اللحظات – متدفقة من أغوار النفس.. وما سبق لي أن شعرت من قبل بمثل هذه المفاجأة ولا بمثل هذا الغضب الجامح الذي استولى عليّ في تلك اللحظة، إذ لمست عجزي..

فبينما كنت متأهبة للقيام بأشد الأفعال نزقًا ورعونة.. بل بينما كنت متأهبة لأن أطوح بجميع ما ادخرت في حياتي المنتظمة المستقيمة من رزانة، ولأن أطلق العنان لجميع القوى التي كانت مكبوتة حتى ذاك الوقت، إذا بي أجد نفسي فجأة أمام سياج جامد سخيف.. ذهبت محاولاتي لتسلقه أدراج الرياح..

ولم يكن ما فعلته بعد ذلك سوى إمعان في السخف.. كان جنونًا، بل طيشًا أخجل من ان أرويه لك،، ولكني عاهدتك أن لا أخفي عليك شيئًا.. لقد رحت أجد في البحث عنه.. أو بمعنى آخر حاولت أن أستعيد كل لحظة قضيتها معه.. وشعرت بقوة قاهرة تجذبني إلى جميع الأماكن التي ارتدناها بالأمس معًا، فاتجهت إلى المنتزه، حيث المقعد الذي جررته منه.. وإلى غرفة المقامرة حيث رأيته للمرة الأولى.. بل لقد ذهبت إلى ذاك الفندق الوضيع.. كل ذلك لكي أستعيد الماضي معه، ولو لمرة واحدة أخرى.. وفي اليوم التالي.. راق لي أن أستقل عربة انطلق بها نفس الطريق الذي سلكناه معًا – على الكورنيش – حتى تبعث في نفسي كل كلمة، وكل حركة، مرة أخرى.. أجل، لقد بلغ اضطراب عقلي حد الجنون.. بل حد العبث الصبياني.

ولكن ثق أن هذه الأحداث انقضت عليّ انقضاض الصاعقة..

فلم أعد أشعر بغير ضربة قاسية.. ضربة فذة.. أذهلتني.. على أنه حين فارقني هذا الذهول، شعرت برغبة في أن أعيش من جديد، كي أستمتع بتلك المشاعر الضالة، أرشفها قطرة قطرة، بتلك الطريقة السحرية التي نلجأ إليها في خدعنا لأنفسنا، والتي نسميها: الذكرى.. والواقع أن ثمة أمور لا تحتمل الجدل، فإما أن يفهمها المرء أو لا يفهمها.. وربما احتاج المرء إلى قلب متأجج كي يدركها.

لهذا سعيت أولًا إلى قاعة المقامرة باحثة عن المائدة التي كان يجلس إليها، لأعيد النظر إليها، ولأتصور يديه بين الأيدي المجتمعة عليها، ودخلت القاعة وأخذت أبحث عن المائدة التي رأيته عليها للمرة الأولى، حتى استطعت أن أهتدى إليها.. كانت المائدة اليسرى في الحجرة الثانية.. وكانت كل حركة من حركاته لا تزال واضحة المعالم في ذاكرتي، ومن ثم كان بوسعي أن أهتدي إلى مكانه تمامًا وأنا مغمضة العينين، مبسوطة اليدين، وكأنني أسير في أثناء نومي .. هكذا كنت حين دلفت إلى الحجرة، وجست ببصري خلال الجمع الصاخب، وإذ ذاك.. وقع أمر غريب.. فهناك وفي نفس المكان وجدته جالسًا! وخيل إليّ أنه وهم من وحي الحمى التي كانت تتملكني .. ولكنه كان هو بلحمه ودمه.. هو بنفسه.. كما تمثلته منذ لحظة في خيالي، وكما كان بالأمس تمامًا، وقد علقت نظراته بالكرة، وجمد شاحبًا كالموتى.. هو نفسه ما في ذلك أدنى شك.

وكدت أصرخ لفرط ما انتابني من فزع.. ولكني كبحت جماح أعصابي إزاء هذا المنظر الذي يودي بالعقل وأغمضت عيني مرددة لنفسي "إنك لمجنونة، لقد رحل عن هنا بالقطار منذ نصف ساعة".. ثم فتحت عيني من جديد، فوقعتا على نفس المنظر الرهيب الذي ألمني به منذ لحظة.. كان يجلس إلى المائدة بلحمه وشحمه، دون أدنى شك.. وكان في وسعي أن أتعرف على يديه.. بين ملايين الأيدي.. لا.. ما كنت بحالمة.. إنه هو نفسه! إذن فهو لم يسافر كما وعدني.. لقد مكث المعتوه وجاء إلى هنا إلى المائدة الخضراء.. بالنقود التي منحتها له كي يعود بها إلى بلاده.. لقد أنساه سعار اللعب نفسه تمامًا، فجاء يقامر بتلك النقود على مائدة اللعب، في الوقت الذي كان اليأس من العثور عليه يدمي قلبي.

وبقفزة واحدة اندفعت إلى الأمام، وقد أعمى عيني غضب أهوج بعث في نفسي ثورة جامحة، فتملكتني رغبة ضارية في أن أهوي بقبضتي على وجه ذلك الحانث الذي بدد ما أودعته فيه من ثقة، وخان شعوري وإخلاصي في خسة وضيعة.. ولكنني كظمت غيظي مرة أخرى، ودنوت ببطء متعمد حتى بلغت المائدة، في مواجهته تمامًا، ووقفت في مكان أفسحه لي رجل مهذب.. ولم يعد يفصلني عنه سوى مترين هما عرض الرقعة الخضراء، ومن ثم كان بوسعي أن

أرقب وجهه بسهوله كما لو كنت أجلس في مقصورة عالية بأحد المسارح.. وتأملت وجهه، فإذا هذا الوجه الذي رأيته منذ ساعتين يتألق بعرفان الجميل وتحيط به هالة من بهاء قدسي.. قد غدا فريسة مرتعدة لنيران النزوة الجهنمية! ويداه.. اليدان اللتان رأيتهما بعد ظهر اليوم نفسه تتشبثان بسياج المذبح، وصاحبهما يقسم بأقدس الأيمان.. لقد عادتا تتوتران وهما تنقضان على النقود المتناثرة حولهما، كوحشين كاسرين.. فقد كان رابحًا، ولابد له أن ربحه كان كبيرًا، وكبير جدًّا.. إذ كانت الأضواء تنعكس على كومة غير منسقة – أمامه – من الفيشات.. والعملة الذهبية.. خليط تناثر أمامه في غير انتظام، وكانت أصابعه المتوترة، المرتجفة، تجوس خلال هذا الخليط وتغوص في غبطة نشواته.. ورأيت يديه تمسكان بأوراق النقد المختلفة تطويانها وترتبانها، ثم تعودان فتتحسسان في شغف قطع النقود المعدنية.. وما لبثتا أن أمسكتا بحفنة منها، فطوحتا بها إلى أحد مربعات الروليت.. وسرعان ما بدأت طاقتا أنفع تختلجان في رجفة متقطعة.. واجتذب نداء مراقب اللعب عينيه عن كومة النقود، فتحولتا تراقبان الكرة في حركتها الجنونية، وخيل إليّ أن نفسه توشك أن تنطلق من كيانه، وهو متكئ بمرفقيه على الرقعة الخضراء، فكأنهما سمرا إليها.. كانت حالة أدعى في رأيي إلى الجزع من حالة بالأمس.. إذ كانت كل حركة من حركاته تقتل في نفسي الصورة

الوضاءة التي كانت تتألق في أعماق نفسي الساذجة، وكأنها أقيمت على قاعدة من ذهب.

وهكذا كنا، لا يفصل بين أحدنا والآخر سوى مترين، ورحت أمعن النظر فيه، وهو لا يفطن إلى وجودي، فما كان ليرفع عينيه إليّ أو إلى أي شخص آخر.. إذ كان بصره متعلقًا بالنقود وحدها، وهو يتململ قلقًا، وينظر بين الفينة والفينة إلى دوران الكرة، كانت الرقعة الخضراء المستديرة تستولي على جميع حواسه التي مضت تتعقب اللعب لاهثة.. كأنما ذاب العالم بأسره والإنسانية جمعاء، في هذه الرقعة من القماش الأخضر المبسوطة أمامه.. وأيقنت أنني قد أبقى في مكأني ساعات وساعات دون أن يخامره أي شعور بوجودي.. ولكنني لم أعد أقوى على ضبط أعصابي، فدرت حول المائدة – بعزم ثابت – ووقفت خلفه، ثم مسست كتفه بيدي في شدة، وتذبذبت نظراته لحظة، ثم أخذ يتفرس في وجهي بحدقتيه اللتين لاحتا ككرتين من زجاج كمن يحدق في شخص لا يعرفه.. كان كالمخمور الذي يجد الإنسان عناءً في هزه كي يفيق من غيبوبته، فتظل أبخرة الخمر ترين على عينيه.. وأخيرًا لاح أنه عرفني، إذ انفرج فمه في اختلاج عصبي، وتأملني بنظرة نمت عن السعادة، ثم تمتم في صوت واهن، وفي ألفة جمعت بين شرود الذهن وغموض القصد: "إن الحال

تسير كما ينبغي.. لقد شعرت بذلك بمجرد دخولك، وبمجرد أن رأيته هناك.. لقد أحسست بذلك في الحال".

ولم أفقه لقوله معنى.. كل ما أدركته هو أن اللعب أثمله، وأنه نسي كل شيء.. نسي قسمه، ووعده، والعالم بأسره.. وأنا.. ولكن بريق الدهشة الذي فاض من عينيه حين رآني، كان مغريًا، رغم تعاسة حاله وتسلط الشيطان على زمامه، ومن ثم وجدتني أهتم بقوله على الرغم مني، وأسأله في جد عمن كان يعنيه بكلمة رأيته.. فأجابني وهو يميل نحوي حتى لا يسمع أحد سره السحري: "أقصد ذاك القائد الروسي المسن، ذا الذراع الواحدة.. ذاك الذي يجلس هناك، وخلفه تابع خاص.. إنه يربح دائمًا.. لقد لاحظت ذلك أمس، فأدركت أن له ولابد طريقة خاصة، ومن ثم رحت ألعب مثله تمامًا.. ولقد كان أمس دائم الربح، بيد أنني أخطأت بالأمس عشرين ألفًا من الفرنكات.. وها هو اليوم يربح في كل مرة.. وأنا الآن أضع النقود حيث يضع نقوده.. والآن".

وقطع حديثه فجأة حين صاح مراقب اللعب بصوته الجهوري: "أبدأوا اللعب".. والتفت الشاب لتوه إلى جانبه، وهو يثبت عينيه على مقعد الرجل الروسي ذى اللحية البيضاء، فإذا الرجل الهادئ، الوقور .. يضع في حذر قطعة ذهبية على المربع الرابع.. ويمكث

لحظة مترددًا، ثم يضع قطعة أخرى.. وفي الحال غاصت يدا الشاب المرتجفتان اللتان كانتا أمامي في كوعة النقود.. ووضعتا حفنة من القطع الذهبية على نفس المربع، وعندما صاح المراقب بعد دقيقة، قائلًا: "صفر" وامتدت مجرفته تحصد كل ما كان على المائدة بحركة واحدة حدق الشاب مذهولًا، كما لو كان ضياع كل هذه النقود معجزة من المعجزات.. وقد يخطر ببالك أنه التفت نحوي.. لا، لقد نسيني تمامًا.. تلاشيت من اعتباره، ولم يبق لي في حياته وجود.. إذ تركزت كل حواسه المتوترة على القائد الروسي الذي أمسك بقطعتين من النقود في يده، في غير تحمس، وكأنه يفكر في اختيار الرقم الذي يضعهما عليه..

وليس بوسعي أن أصف لك ما انتابني من مرارة ويأس.. ولكنك تستطيع أن تتصور ما أحسست به نحو رجل بذلت كل ما في وسعي لأعيد إليه حياته كلها، فإذا أثري في نفسه لا يزيد عن أثر ذبابة يطردها بضجر.. وعادت نوبة الغيظ تتملكني فضغطت ذراعه بعنف شديد جعله ينتصب واقفًا.. وقلت له في صوت منخفض، ولهجة آمرة: "فلتقلع عن اللعب.. تذكر القسم الذي أقسمته لي اليوم في الكنيسة.. أيها التعس".. فحدق في وقد هزته كلماتي، وامتقع وجهه، وبدت في عينيه ذلة.. وارتجفت شفتاه، وكأنما تذكر الماضي

كله فجأة، وما لبث أن قال متلعثمًا: "أجل.... أه.. يا إلهي .. أجل .. سأنصرف.. فاغفري لي".

وشرعت يداه تجمعان النقود بعجلة وتحمس في البداية، ولكن حركاتهما تثاقلتا شيئًا فشيئًا، وكأنما جثمت عليهما قوة عاقتهما عن المضي.. وعاد بصره يتجه إلى القائد الروسي، الذي اختار رقمه، وعلى الفور ألقى الشاب بخمس قطع ذهبية على نفس المربع.. وهو يقول: لحظة أخرى.. لن ألعب سوى هذه المرة فقط.. أقسم لك أني سأنصرف بعدها.. لن ألعب سوى هذه المرة فقط.. وتلاشى صوته، إذ بدأت الكرة تدور، فحملته معها في دورانها.. لقد أفلت المعتوه مني ثانية.. وأفلت من نفسه.. منطلقًا مع الكرة في دورانها.. وهي تقفز وتثب حتى استقرت في فجوة مصقولة..

وصاح مراقب اللعب معلنا رقمًا، وامتدت مجرفته إلى القطع الذهبية الخمس.. فقد خسر الشاب.. بيد أنه لم يلتفت إليّ.. فقد نسيني كما نسي القسم الذي أقسمه على نفسه.. وكما نسي الكلام الذي لم تنقض عليه سوى دقيقة واحدة... وعادت يده تغوص بانفعال في كومة النقود المتناقصة، وبصره مسدد تمامًا إلى الرجل المقابل له.. الرجل الذي كان يجلب له الحظ.. ويفعل في إرادته فعل المغناطيس!.

وعيل صبرى فهززته مرة أخرى، ولكن في عنف أشد، وقلت: "انهض لفورك.. وفي هذه اللحظة، لقد قلت إن هذا هو الدور الأخير" وعندئذ وقع ما لم يكن في الحسبان.. إذ التفت نحوي ولم يكن الوجه المتطلع وجه الرجل الوديع المضطرب، وإنما كان وجهًا ثائرًا.. وجه إنسان استبد به الغضب، فأخذت عيناه ترسلان الشرر، وشفتاه ترتعشان لفرط الحنق وصاح بي في جحود: "دعيني وشأني.. اغربي عن وجهي.. فإنك تجلبين لي النحس.. إنني أخسر دائمًا حين تكونين هنا.. هذا ما حدث بالأمس.. وها هو ذا يتكرر اليوم.. ألا انصرفي من هنا".

واستولى عليّ الذهول لحظة، ولكني أمام هذا النزق، شعرت بغضبي يحتدم فقلت أخاطبه:"أأنا التي أجلب إليك النحس؟ أفلم تقسم أيها الكاذب اللص؟! "ولم أزد على هذه العبارة.. إذ وثب كالمسعور من مكانه ودفعني غير مبال بالحاضرين الذين نهضوا واقفين، ثم صاح بصوت مرتفع في وقاحة: "اغربي عن وجهى.. لست تحت وصايتك.. هاك.. هاك.. إليك نقودك.. والآن دعيني وشأني".. وقذفني ببضع ورقات مالية من فئة المائة فرنك، بينما كان ينطق بهذه العبارات بصوت مرتفع جدًّا، وكأنه مجنون، غير حافل بمئات الناس الذين كانوا يحيطون به.. وأخذ الجميع يتطلعون

إليه متهامسين، متغامزين، متضاحكين.. بل إن كثيرين ممن كانوا في الغرفة المجاورة أقبلوا بدافع الفضول، فخيل إليّ أنني قد جردت من ثيابي، ووقفت عارية أمام هذا الحشد المتطفل!.

وصاح مراقب اللعب في صوت آمر، وهو يدق المائدة: "صمتًا يا سيدتي، من فضلك".. كان يوجه هذه الكلمات المنكودة إليّ.. أنا.. فشعرت باستحياء مما أصابني من هوان، وكساني الخزي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، إذ رأيتني نهبًا لهمهمة الفضوليين وهمساتهم، كما لو كنت فتاة من بائعات الهوى، ألقي في وجهها بالأجر.. وراحت مائة عين، بل مائتان تتفرس في وجهي.. وانحنيت جانبًا.. وقد انحنى ظهري تحت طوفان الهوان والخزي، حتى إذا أشحت بوجهي إلى الناحية الأخرى، تجنبًا للنظرات.. إذا بي أمام عينين زائغتين لفرط الذهول.. كانت ابنة عم زوجي أمامي تتطلع إليّ مشدوهة، وقد فغرت فاها، ورفعت يدها بتأثير الذعر الذي استولى عليها.

وكأنما كان وجودها سوطًا ألهبني، إذ أسرعت إلى المغادرة.. قبل أن تتحرك وتفيق من دهشتها... كانت لدي بقية من قوة مكنتني من أن أمضي مباشرة إلى المقعد الذي كان في حديقة الفندق.. المقعد الذي كان يجلس عليه ذلك الأحمق مهدمًا بالأمس..

وتهالكت على خشبه اليابس القاسي.. خائرة مهينة محطمة.. تمامًا كما كان هو!.

لقد حدث هذا منذ أربع وعشرين سنة، ومع ذلك فإن الدم لا يزال يجمد في عروقي كلما تذكرت تلك اللحظة، وقد ألهبتني إهانته لي بمشهد من ألف غريب.. إن الحيرة لا تزال تتملكني ، كلما عاودني التفكير في أمر تلك المادة الرخوة، التعسة. الهيابة، التي يتألف منها ما نسميه بالنفس، والعقل ، والشعور، والألم.. إذ كيف تعجز هذه كلها وهي في أقصى درجات احتدامها عن أن تحطم الجسد الذي يتألم، واللحم الذي يتعذب؟! كيف يستطيع الإنسان أن يعيش بعد مثل تلك الساعات لمجرد أن الدم مستمر في جريانه فلا يموت ويتحطم مثل الشجرة خلال العاصفة.

ذلك لأنني لم أشعر بوطأة الألم سوى لحظة قصيرة.. اللحظة التي تلقيت فيها الصفعة.. وعندما تهالكت على المقعد.. مضعضعة الحس، متهدجة الأنفاس أكاد أختنق، شعرت بطعم الموت ينتشر في فمي.. ولكن الألم بجميع أنواعه ضعيف هياب كما قلت، فهو يتقهقر ما يجتاح عقولنا من قوى راغبة في الموت.

وكان من الأمور التي لم أوفق إلى تفسيرها لنفسي، أنني بعد تلك الصدمة التي ضعضعت مشاعري استطعت أن أرتد إلى صوابي، وإن

لم أدر في الواقع ما الذي كان ينبغي أن أفعل.. وتذكرت فجأة أن حقائبي في المحطة فاستبدت بي فكرة ملحة في الرحيل.. الرحيل.. الرحيل من هنا.. الرحيل وحسب.. بعيدًا عن هذا الكازينو اللعين.. عن هذه البؤرة الجهنمية.. وبادرت راكضة إلى المحطة، لا أنوي على شيء، وسألت عن موعد أول قطار متجه إلى باريس.. وما إن علمت أن موعده في الساعة العاشرة، حتى بادرت إلى سحب متاعي..

الساعة العاشرة.. أي بعد أربع وعشرين ساعة تمامًا، من ذلك اللقاء أربع وعشرين ساعة كانت زاخرة بالعواصف الهوجاء، وبالعواطف التي بلغت من الغرابة حدًّا أحدث في نفسي جرحًا باقيًا إلى الأبد.

على أنني في البداية لم أشعر إلا بكلمة واحدة راحت تتردد في نفسي، في تواتر مستمر: الرحيل ! الرحيل ! الرحيل! كانت عروقي لا تفتأ تنبض بهذه الكلمات، فترددها جنبات رأسي: الرحيل! الرحيل! الرحيل! بعيدًا عن هذه المدينة.. بعيدًا عن نفسي .. إلى وطني، وإلى أهلي، وإلى حياتي السابقة.. حياتي الأصلية!.

وقضيت ليلتي في قطار باريس، حيث رحت اتنقل من محطة إلى محطة أخرى، ثم يممت شطر بولونيا، ومنها إلى دوفر، ثم إلى لندن، ومن لندن إلى حيث كان ابني يقيم في الريف الإنجليزي، كل ذلك

في سرعة الطير، دونما تفكير بل ودون نوم، ودون كلام، ودون طعام! وكانت عجلات القطار خلال هذه الساعات الثماني والأربعين، لا تنفك تردد الرحيل! الرحيل! الرحيل! الرحيل! الرحيل! الرحيل!

وما إن دخلت بيت ابني في الريف – أخيرًا، وعلى غير انتظار – حتى انتاب الجميع جزع، إذ كان في كياني، ونظرات عيني، شيء يفضح ما في سريرتي.. ولابد! وتقدم ابني مني ليقبلني.. فتراجعت مجفلة! لم أطق أن آراه يقبل الشفتين اللتين اعتبرتهما مدنستين.. ورفضت الإجابة على أي سؤال، وإنما طلبت أن يعد لي الحمام.. إذ شعرت بحاجة إلى أن أطهر جسمي، لا من وعثاء السفر، ولكن من كل ما بدا لي عالقا به من نزوة ذلك الشاب المعتوه.. الخسيس.. ثم تحاملت على نفسي حتى بلغت مخدعي، فاستغرقت في النوم اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة، وكان نومًا عميقًا.. لم أشعر خلاله بشيء على الإطلاق، وكأنني كنت من حجر.. أبدًا لم أنم مثله من قبل، ولا فيما بعد.. لقد أدركت منه معنى الرقدة في التابوت.. معنى الموت للإنسان!.

وانتاب القلق أهلي.. إذ حسبوني مريضة.. على أن عطفهم لم يفلح إلا في أمر أيقاظ الألم.. إذ شعرت بخزي، وبأنني غير أهل لاحترامهم، ولا لإكبارهم لي.. وكنت مضطرة إلى أن أشدد الرقابة على نفسي، حتى لا أصيح فجأة، وأكاشفهم بمدى خيانتي لعهدهم جميعًا، وكيف نسيتهم، وكدت أتخلى عنهم، بدافع نزوة مجنونة. جامحة!.

ورحلت بعد فترة إلى قرية فرنسية صغيرة، وقع اختياري عليها بمحض المصادفة، دون أن أعرف فيها إنسانًا.. فقد كانت تلاحقني فكرة ملحة، ملحة، بأن في وسع الناس جميعًا أن يلمحوا على مظهري لأول وهلة ذلك العار الذي أصابني، وذلك التغير الذي طرأ عليّ، إذ تغلغل في أعماقي الشعور بخيانتي وقذارتي.. وكنت إذا ما استيقظت في الباح شعرت بخوف طاغ من أن أفتح عيني، وأنا في سريري.. فقد كانت ذكرى تلك الليلة تدهمني، فأتذكر كيف استيقظت ذات يوم فوجدت نفسي إلى جوار رجل غريب عني، نصف عار.. وكان الإحساس الذي داخلني في المرة الأولى لا يلبث أن يعاودني.. الإحساس بالرغبة في الموت، في التو واللحظة!.

على أن للوقت سلطانًا كبيرًا، رغم كل شيء.. والعمر يستهلك كافة المشاعر، بشكل عجيب.. فكلما تقدمت الأعوام بالمرء..

أحس بأنه يزداد اقترابًا من الموت الذي يلقي على الطريق ظله القاتم، ومن ثم تفقد الأشياء بهجتها، بل إنها تفقد قوتها وبأسها.

وهكذا أخذت أفيق من الصدمة، حتى إذا قدر لي بعد سنوات أن ألتقى بالملحق التجاري بالمفوضية النمسوية وكان شابًا بولندي الأصل وجدتني أسأله عن أسرة ذلك الشاب الذي شاطرته الفراش ذات ليلة، فأجابني بأن أحد أفراد أسرته انتحر منذ عشر سنوات في (مونت كارلو).

وتلقيت النبأ دون ما دهشة، ودون أن يثير في نفسي أي ألم، بل لعلني أحسست براحة لسماعه.. فليس من داع لإنكار الأنانية! إذ إن موت ذاك الشاب قضى على كل احتمال للقائه مرة أخرى، وبذلك لم يعد ثمة شاهد على ذنبي سوى ذكرياتي الخاصة! وهكذا أصبحت منذ ذلك الحين أكثر طمأنينة.. فليست الشيخوخة في حقيقة أمرها سوى المرحلة التي يجب أن نحيا فيها بلا خوف من الماضي!.

لعلك تفهم الآن سر رغبتي المفاجئة في أن أقص عليك حياتي الماضية.. فعندما سمعتك تدافع عن مدام "هنريت" وتصر في ثبات على أن أربعًا وعشرين ساعة تستطيع أن تغير حياة امرأة، تغييرًا كاملًا ، شاملًا، أحسست بأنني المعنية بهذا الكلام! وشعرت بأنني

مدينة لك بالشكر، إذ رأيت نفسي لأول مرة في الواقع أقف خلف رجل يدافع عني.. لهذا فكرت في أنني قد أفضفض عن نفسي بالاعتراف.. فينزاح عني الحمل الثقيل الذي يرزح ماضي حياتي تحته! أجل، ينزاح الذنب الذي يلاحق حياتي دون ما هوادة.. وبذلك، قد يغدو في وسعي أن أعود غدًا إلى قاعة اللعب التي التقيت فيها يومًا بالنصيب الذي أراده لي القدر دون أن أشعر بحقد على ذلك الشاب، ولا على نفسي !.

أجل، خطر لي أن الاعتراف كفيل بأن يزحزح الصخرة الجاثمة على صدري، فتسقط بكل ثقلها على الماضي وتدفع به إلى ما يشبه الجب.. وهناك.. تظل قابعة فوقه.. تحول بينه وبين اليقظة، على الدوام!.

كانت السعادة بالنسبة لي إن تمكنت من ان أروي لك كل هذا.. لقد نفست الكرب عن نفسي، وأوشكت أن أهنأ.. وإني لأشكرك!".

ونهضت واقفًا إذ ذاك، وقد أدركت أنها فرغت من قصتها، وحاولت في حرج أن أسري عنها، وبدا كأنها قرأت ما جال بخاطري، فبادرت قائلة: "لا، أرجو أن لا تتكلم.. لا أريد أن تجاملني، أو تعقب بقول.. ألا شكرًا لك إذ أصغيت لي.. وفي رعاية الله!".

وكانت واقفة أمامي مودعة.. فتطلعت إلى وجهها، فإذا بأسارير هذه العجوز تثير العطف في قلبي.. ولست أدري ما الذي بعث فجأة تلك الحمرة التي كست وجهها حتى منابت الشعر الأبيض.. أهو صدى العاطفة الخابية.. أم هو الارتباك؟ ما كان أشبهها بفتاة تطرب من ذكرياتها، وتخجل من الاعتراف بها..

وأحسست برغبة طاغية في أن أصارحها بما أكنه لها من احترام.. ولكن الكلمات لم تغادر حلقي الجاف، فلم أملك سوى أن أنحني أمامها في احترام بالغ، وأن أقبل في توقير يدها المتغضنة، التي سرت فيها رجفة خفيفة، فبدت كأوراق الشجر الذابلة في الخريف.

الفهرس